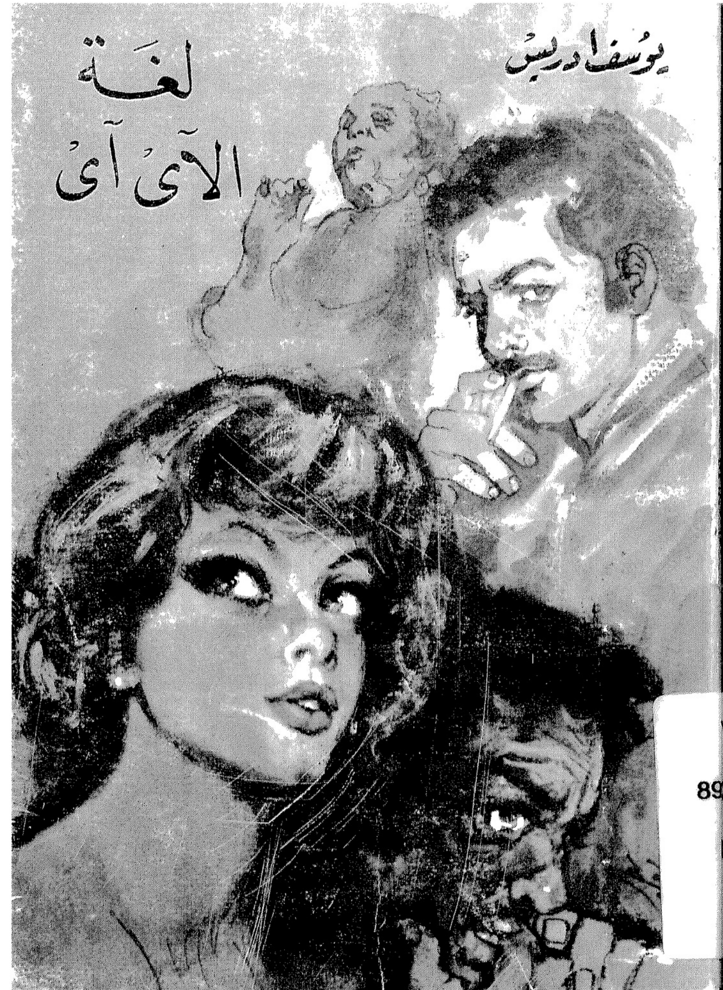

يوسف ادريس
لغة
الآى آى

لغة الآی آی

مطبوعات مكتبة مصر

# لغة الآي آي

تأليف

يوسف إدريس

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

# حالة تلبس

حينما ضبط المنظر لم يكن عميد الكلية هو الذى غضب والتهبت الدماء فى عروقه ، ولكنه الطفل الذى ولد وتربى فى « سوهاج » ، ومنذ أن بدأ يعى فهم أنه قد يكون ما يحدث مباحا للرجل، وعيبا للشباب، ومحرما تحريما قاطعا على الأطفال ، ولكنه للنساء جريمة .. أكثر من جريمة قد يوازى هتك العرض ! فما بالك وهى ليست رجلا ولا طفلا ولا حتى سيدة ، ولكنها فتاة . بنت لا تتعدى السابعة عشرة بأى حال..

وحين وصل الغضب قشرة العقل المكتسبة وانفعال العميد الذى فيه ، كان أكثر ما ضايقه أنها لا بد فى السنة الأولى .. طالبة جديدة يعنى بالأمس فقط كانت طفلة فى الثانوى .

ورغم كل غضبه لم يتحرك إلا حينما تحرك الوالد الذى فيه وتململ ، وأدرك كالمدهوش أنها تكاد تكون فى سن ابنته « لمياء » . حينئذ فقط استدار مغادرا النافذة فى طريقه إلى حيث أزرار الجرس الموضوعة فى مكانها الخالد الذى يتوارثه العمداء فوق المكتب .

وربما لو كان فى الحجرة أحد — أستاذ أو لجنة أو حتى لو كان فى انتظار مقابلة كائن ما — لكانت الحركة قد اكتملت وكانت يده حتما قد وصلت إلى الزر ، والساعى المرابط أمام الباب حضر ؛ والفصل لأسبوع أو لأكثر من الكلية أو حتى الزجر والضرب قد حدث .

ولكنه كان وحده فى حجرة العميد الواسعة المهولة ذات النافذة الجانبية

الضيقة . والحجرة المهولة تغرى بالتريث ، والنافذة الضيقة تغرى بتدقيق النظر ، وفى حالته كان الإغراء كبيرا بإعادة النظر .

وعاد إلى استمرار النظر .

الحجرة فى الدور الأول الذى لا يرتفع عن الأرض إلا قليلا . والفناء الخلفى الذى تطل عليه النافذة الجانبية خال تماما من الطلبة فهو فى العادة مكان غير مرغوب من الطلبة ، والساعة اقتربت من الثالثة ، واليوم الدراسى انتهى ، ولولا مراجعة جدول الامتحان لما كان هو نفسه قد بقى إلى هذا الوقت ، ولما قام من النافذة منهكا يتثاءب ويتمطى ويأخذ فكرة عن الجو بالخارج ، ولما شاهدها — تلك الطالبة الصغيرة التى ما أن بدأ عقله يتساءل عما أتى بها إلى هذا المكان المهجور وبعد انتهاء الدراسة حتى كان الغضب قد اجتاحه — إذ وجدها بكل بساطة وتحت أنف نافذته تخرج .. بل أخرجت فعلا علبة سجائر من حقيبة يد مستطيلة ضخمة ، وعبثت بكراريس المحاضرات المختلطة بأدوات التجميل قليلا ، وما لبثت أن أخرجت علبة كبريت أيضا .

طالبة — واضح تماما أنها لا بد فى السنة الأولى — تدخن وتحمل معها فى الحقيبة علبة سجائر وعلبة كبريت ؟

هكذا من النظرة الأولى تفجر الغضب .

ولكن النظرة التالية كانت نظرة مذهول يستبعد تماما أن يصدق أن شيئا كهذا ممكن أن يحدث ، مؤجلا التصديق إلى أن يراها فعلا وهى تدخن .. خاصة والفتاة كانت لا تزال ممسكة السيجارة فى يد والكبريت فى يد أخرى وكأنما لم تقرر بعد ماذا تفعل بشأنهما .

وتأملها العميد .. كانت طالبة عادية لا يمكن إذا رآها فى مجموعة أن تستوقف النظر ، شعرها مهوش على طريقة الجيل الجديد فى الأناقة ، وعيناها ذابلتان لا بد

من المذاكرة والسهر ، متكئة تكاد تكون مستلقية بعد يوم متعب حافل على الأريكة المهملة التى لا يستعملها أحد ، ولكن شبابها الفائر يكاد يقفز من وجنتيها المحمرتين رغم قمحية بشرتها ، ومن جسدها البارز فى أكثر من مكان من ملابس الطالبة الرخيصة التى ترتديها .

وبوغت العميد حقيقة وهو يلحظ فجأة أنها بأصابع اليد الواحدة — أصابع تلون سبابتها آثار الحبر — قد فتحت علبة الكبريت ، وباليد الأخرى .. بيد ثابتة لا اضطراب فيها ولا خوف ، وبحركات تلقائية ليس فيها من مجهود الإرادة شىء ، ثبتت السيجارة فى فمها وأدارتها دائرة كاملة بين شفتيها وكأنما لتبلل كالمدخنين العتاة فمها « الفلتر » وبنفس التؤدة والتلقائية وبضربة لا أثر للتدبير فيها أشعلت العود ولم تقربه من السيجارة فى الحال — أهملته بين أصبعيها قليلا وكأنما تستمتع برؤيته يحترق — ثم ما لبثت ببطء ودون أن تنظر وبعينين هائمتين فى جدار الفناء البعيد ، أن قربت العود بحيث لامست شعلته طرف السيجارة دون أن تحيد يمينا أو يسارا وكأنما يدها مدربة على الطريق ، وجذبت نفسا واحدا اشتعلت بعده السيجارة، وبالدخان الخارج بعد ابتلاعه من فمها أطفأت العود ، ثم لم تلبث أن ألقته فى إهمال غريب فوق عشب الممشى القريب .

وجن جنون العميد .. إنها مدمنة داعرة الإدمان أيضا . إنه هو نفسه يدخن ولا يفعل شيئا كهذا . إنه يشعل السيجارة كلشنكان ويدخنها كيفما اتفق ، ولكن هذه متى وكيف وفى أى بؤرة فساد قد تعلمت كل هذا ؟ إنها حتى لا تشعل الكبريت كالنساء اللاتى قرأ مرة أنهن يشعلن العود إلى الناحية البعيدة عنهن خوفا غريزيا من ناره على ملامحهن وشعرهن، وإنما فقط بعد الاطمئنان إلى شعلته بعد خفوتها يجرؤن على تقريبه منهن . أما هذه الـ .. الطالبة . طالبة أولى هذه .. لا تخاف العود ولا النار ويبدو أنها لا تخشى شيئا فى الوجود . إنها لا يمكن أن تكون

فى السابعة عشرة ـــ سن ابنته ـــ لا بد أنها أكبر بكثير .. بسنتين لا بد أو حتى بأيام . إنها جرثومة ! إن الفصل أسبوعا واحدا لا يكفى أبدا .. الرفت النهائى هو ما يجب عمله .. لا أقل من الرفت النهائى .

ولكنه لم يعرف كيف حدث هذا ، فقد وجد شيئا أكبر بكثير من كل غضبه ، وكل حماسه للضغط على الجرس واستدعاء الساعي ، واتخاذ بقية الإجراءات ، شيئا أجبره على أن يقف فى مكانه لا يتحرك وينتظر ويراقب ويعاود الرؤية .

ورفعت الفتاة يدها إلى فمها مرة أخرى ، ولكنها انتظرت قليلا بفم السيجارة قريبا من فمها ، ثم بدا وكأن الوقت قد حان .. وهكذا ببطء لا تلكؤ فيه أسبلت جفنيها حتى كادتا تغلقان تماما ، ثم ضمت شفتيها حتى ضاقت الفتحة بينهما وتكرمش غشاؤهما ، ومن الفتحة الضيقة أدخلت فم السيجارة وجذبت نفسا ، لا لم يكن جذبا كان امتصاصا ، ليس امتصاص دخان لكأنه رشف أعظم سعادات البشر . رشفه ببطء وباستعذاب وبملايين الأفواه ! كل خلية من خلاياها بدت وكأنما أصبح لها فم تجذب به وترتشف، ويتموج جسدها كله تموجا غير منظور وعلى دفعات وكأنه عطشان يجرع أعذب الماء ، ويريد أن يستمتع بكل قطرة من قطراته . حتى إذا ما بدا أن كل دقيقة فيها قد أخذت كفايتها وظفرت بسعادتها الخاصة ، رفعت السيجارة عن فمها ببطء وكبرياء ، وعينين قد فتحتا ببخل شديد وكأنها تخاف أن تهرب من فتحتيهما النشوة . واستحال غضب العميد إلى لحظة صدمة مفاجئة تكاد تتحول إلى ذعر .. خوف شديد أن يستمر فى الرؤية .. خوف الخائف على نفسه هو من استمرارها ، والفناء بدا له كالبقعة المهجورة المقطوعة عن العالم ، يحفل بسكون وزمتة ورائحة ربيع مقبل مخيف ، وقرب أيام نهاية العام والامتحان .. والفتاة كأنها جنية من

جنيات الظهر انشقت عنها خرابة الفناء فجأة ، متكئة ، تكاد تكون مستلقية فوق الأريكة ذات الحديد المتراكم فوقه الزمن والصدأ ، الناقص مقعده خشبة الوسط .

وبرهبة المذهول هذه المرة راح يترقب كيف تخرج النفس .. فمها المضموم أبقته مضموما هنيهة ، ثم فتحته نصف فتحة ، وبحركة فيها كسل أنثوى ضاقت له عيناه راحت توسع من فتحته قليلا قليلا فى نفس الوقت الذى كان صدرها قد بدأ يتسع ، وكأنها بسبيلها إلى التنهد حرقة ولوعة ، ربما على فراق تلك السحابة الدخانية الصغيرة التى فجرت فى جسدها — المستلقى تعبا واسترخاء — حيوية ، وأضافت إلى صباها صبا : يتسع حتى ليجذب الدخان إلى أعمق أعماقها ليلامس أقصى أرجائها ، وليلتقى بكل جزء من صميم صميمها لقاء الوداع . وفى نفس الوقت الذى يعود فيه الصدر إلى وضعه الطبيعى وحجمه ، يكون الدخان هو الآخر قد بدأ يخرج من الشفتين المنفرجتين أضيق أوسع انفراج .. تخرج دفعاته الأولى مرسلة على سجيتها دون ضغط أو إكراه تصنع دوائر لولبية وضبابات ، ثم تتلوها الدفعات الخارجة بالإرادة متأنية موجهة قد شحب دخانها وتغير لونه وكأنما امتصت منه كل النضرة والحياة .

قطعا لا بد من فصلها ! فى منتصف السيجارة تماما والجريمة .. سيدق الجرس ويهمس إلى الساعى ، ويذهب الرجل ويطبق عليها ، وساعتها سيعرف اسمها ويفصلها .

ذلك كان قراره ، ولكن ما ضايقه فى الحقيقة أنه بدا وكأنه قرار شخص آخر ، بعيدا عنه جدا ذلك البعد الذى أصبح بين عقله وإرادته . إرادة لايدرى لماذا هى رخوة لاتستطيع أن تنفذ أمرا وكأنما هى واقعة تحت تأثير مخدر سخيف ملعون لايعرف كنهه ، إرادة لم تعد تستطيع أن تفعل إلا أن تنظر وتستمر تنظر .

وأخذت الفتاة نفسا آخر ، وهذه المرة أخرجت دخانه من فمها وأنفها

.. أنف فتحاته صغيرة دقيقة كأنها براعم فتحات يخرج منها الدخان باهتا معتصرا ليصطدم بالدخان الخارج من الفم الضيق المضموم المكرمش .

وأحس العميد بأشياء داخله تتنبه .. وتلفحه سخونة ليس مبعثها الجو ، وسرعة فى دقات القلب لا علاقة لها بمرض الضغط .

وتوالت الأنفاس وفى كل مرة تجذب النفس على مهلها وبتلذذ سعيد تنغلق له عيناها ، وكأن شفتيها المضمومتين على فم السيجارة تبتهلان لشىء أوترشفان شيئا .. رحيق السعادة ربما أو أكسير الحياة ، ويسترخى جسدها ويتدغدغ للنفس ثم تبدأ عملية الإخراج . وتفعل هذا كله باندماج شامل تام وبلا إرادة .. وبطبيعية لا تكلف فيها ولا اصطناع والأنفاس تتوالى ، ويستحيل ما يحسه العميد إلى تيار غريب يجوب جسده كله مع كل نفس ، ولا يوقظه من تعب يوم أو إنهاكه ولكن يوقظ أجزاءه وأجهزته من رقدة عمر طويل ، ويمحو هكذا فى ومضة آثار سنين وأمراض ومشاغل وحياة تصلبت وجفت واستحالت إلى درب ضيق محدود .. فى ناحية منه زوجة جف منه ماء الحياة ولم تعد تفعل إلا أن تتاكف وتضايق ، وفى الناحية الأخرى عمل وروتين لا جدة فيه ولا أمل ، وصراع ، وما بينه وبين رئيسه مدير الجامعة من حزازات ، وهو كالبندول رائح غاد بينهما .. الكلية تدفعه إلى البيت والبيت يدفعه إلى الكلية ، بندول عجوز مصاب بأكثر من مرض ووجع وفى صدره أحقاد .

ومنتصف السيجارة الذى كان قد حدده وصلت إليه الطالبة ، ولكنه كان فى حال لم يعرف فيها إن كان كل ما يحسه سخطا أم إعجابا ، أو إن كان انفعاله انفعال نشوة أم اشمئزاز . كل ما أصبح يفعله حتى ولو لم ترض إرادته ، أن يظل يرى الفتاة ويراقبها .. جسده نفسه ، عيناه ، أنفاسه ، لسانه الذى بدأ يجف فى حلقه ، ساقاه اللتان شدت عضلاتهما واشرأبت .. كلها تراقب .. كلها مع

الفتاة وسيجارتها فى التحام لا يمكن فصله أو إنهاؤه .. التحام متواصل حتى ينبض نفس نبضها حين تطبق بفمها الضيق على فم السيجارة وتجذب وتدوخ بالنشوة ، ثم حين تفتحه نصف فتحة وبه أو بأنفها أو بهما معا تخرج اللوعة والحرقة والنفحات الهاربة ، وفى أعقابها تلك التى تدفعها لتخرج برفق وحنان وتؤدة .. نبض متوال متسارع ، والتحام ذو حرارة مستمرة متزايدة تتصاعد إلى أعلى مراتب عقله وتذيب .. وتذيب أشياء كثيرة .. تذيب أفكارا تحجرت كالمومياء المصبرة وأصبحت حكما وعقائد ، وتفتح مناطق حاصرتها التقاليد وعزلتها ، وتفد الأفكار بسهولة وتنطلق بسهولة ويبدو المستحيل ممكنا ، ولماذا الحرس والساعى والتأنيب والفصل ؟ ألأنها تدخن وسنها سبعة عشر عاما ولأنها طالبة ؟ وما الفرق بين أن تدخن وهى طالبة وتدخن وهى خريجة وكله تدخين فى تدخين ؟ ولماذا نحرمه على جسد شاب فائر ونحلله لسيدة أو لعجوز تسعل وتكح وتبصق كلما جذبت نفسا ؟ أليس هو قائل نفس المبادئ وهو فى العشرين والثلاثين حين كان فى بعثته يرى أن مشكلة مجتمعه الأساسية أن أفراده يحيون فى عصر بتقاليد قرون مظلمة مضت ؟ وأن بلاده لا يمكن أن تصل إلى أى تقدم علمى أو صناعى أو حضارى إلا إذا تم التحرر وعاش الناس فيه بتقاليد عصرهم نفسه وقيمة وأنواع حرياته .. بإعطاء أفراده حتى حرية الخطأ ؟ وألا نمنعهم بالنصح والزجر عن خوض التجارب ونورثهم صوابنا وخطأنا ، بل نتركهم لكى يستخلصوا هم من تجاربهم ما يرون أنه الصواب وما يرون أنه الخطأ ؟

وبدأ جسد الطالبة الصغيرة يتململ ويتلوى ، ونهمها إلى جذب الأنفاس يشتد ويتلاحق ، وكأن فى داخلها تحفر فجوات هائلة تحدث فراغات سريعة مذهلة تطلب الامتلاء .. لا بالدخان ولكن بالمتعة الحادثة من حريتها فى أن تنفرد بنفسها ، وبالسيجارة وتمتص منها ما تشاء وتبتلع ما تشاء ، والعميد يحس بجفاف ريقه يزداد

وحنجرته تتسع وتزداد قدرتها على الرنين وكأنها تستعد لإطلاق صرخة العمر ، وعرق غريب ذو رائحة نفاذة لم يشمها من سنين ينبت تحت إبطيه ، وعرق آخر أكثر غزارة يبلل وجهه ويضبب زجاج نظارته حتى ليخرج منديله بسرعة المحموم ويمسح زجاجها لكى لا ينقطع أبدا إبصاره ، والدنيا حافلة بمؤامرة صمت تام .. سكون غريب لا يمكن أن يكون إلا بفعل قوة خارجية قاهرة ، سكون مركز فى تلك البقعة من الفناء الخلفى ، سكون ليس خارجه سوى العدم ، سكون عالم خال من الحياة تماما ليس فيه حيا سواه وسواها .. هى فى أقصى درجات الاستمتاع وهو فى أقصى درجات الانفعال .. وبينهما ، تفصلهما تماما وتربطهما تماما تلك السيجارة . والحياة تبدو حلوة جدا كل لحظة فيها عمر بأكمله ، وإرادته قادرة على اكتساح الجبل ، ولا شىء فى الوجود مستحيل ولن يرضى بأقل من أجمل وأغنى بنات العالم زوجة له ، وخمس سنوات فقط يصبح فيها أعظم علماء مصر بل الشرق والغرب معا . وماذا تكون جائزة نوبل مكافأة له ؟ وحقيقة ما هذه الحزازات بينه وبين المدير ؟ أليس هو أكبر منها وأقدر بكثير ؟ ولماذا التعنت مع أستاذ القسم المساعد ، لماذا لا يعطيه الفرصة ؟ إنه شاب ومن حقه أن يطمح إلى كرسى الأستاذ .. المشاكل نحن نخلقها حين نفتقر إلى التفاؤل والتفاؤل هو الإرادة ، وبالإرادة القوية تصبح الحياة كالبساط الممهد ، بساط الريح .. عش واضحك وامرح واطلب القمر يأتيك .. أرده إرادة قوية حقيقية يأتيك .. وكله .. كل ما فى الحياة آت لا ريب فيه .

واقتربت السيجارة من نهايتها ، وتلاحقت أنفاس الفتاة فى صعود القمة ، ومضى جسدها يتهدج وقد أصبح كله صدرا يلهث ، وشفاهها بدأت من الجرعات المتلاحقة ترتعش وتضطرب اضطراب الحمى ، حمى شملته هو كله .. والينبوع الخفى فيه يتفجر بأقصى قوته ويصل إلى قمة الانفعال تلك التى ينتفى

معها الزمن .. ولو للحظات بتوقف الزمن ، يغرب إلى ما وراء الإدراك ويصبح الحاضر مجرد لون .. لون أحمر مدمم فى لون الشفق .

وأخذت الفتاة من السيجارة التى كادت نارها تحرق الأصابع نفسا كآخر شهقة ، ثم سكنت تماما وكأنما غابت عن الوجود . ومن بين أصابعها اللتين ارتجتا استرخاء ، انفلتت بقية السيجارة واستقرت ذابلة ممصوصة مغضنة على الأرض .

وأحس العميد بعد الرعود والانفجارات والحمى بسلام مفاجيء ممتد كأنه سيبقى إلى الأبد ، يشمله ويجعله يتمنى أن يكف الكون عن حركته لتبقى اللحظة فى ديمومة لا تنتهى .

ولكن الديمومة انتهت ، فلأمر ما بدت الفتاة وكأن العيون المستترة التى تحس الخطر دون أن تراه قد أدركت شيئا .. فقد ضمت جفنيها بشدة ثم فتحتهما على آخرهما ليلتقيا — هكذا كالطلقة المصوبة بدقة — بعينى العميد فى تطلعهما من خلف زجاج النظارة .

وللا زمن التقت النظرات ، ولكنه لم يكن لقاء ولا وقتا ولا شيئا يقاس . كان ارتطاما ، سقوطا من حالق ربما ، ماء باردا كالثلج ، برودة الواقع الذى ترتجف لهوله المدارك ، الثلج الصاعق .

وتكهربت النظرتان بخجل لا قبل لأيهما به ، خجل سريع مغور جارح .

وفى جزع هائل انتفضت الفتاة جالسة وقد غاص قلبها ، وبيد ترتجف بالرعب دلقت كل محتويات حقيبتها لتستخرج فى لمح البصر كتابا ، تعود معه تنكب كالطالبة المجتهدة على صفحاته .

وكانت حركته ليعود عميدا أبطأ .. ممزوجة بخجل أعظم وبتأنيب أشد هولا .. وتحرك خافض البصر طويلا نحيلا عجوزا محنى الأكتاف ، حاملا

متاعب الدنيا كلها من جديد وليس فى رأسه واضحا سوى الواجب وما لا بد من عمله .. والدائرة البيضاء الملساء الصغيرة فوق مكتبه ، والعقاب .

وبأصابع عادت إليها كل عصبيتها وكأنما تمتد من صدر ضاق بالدنيا ، ضغط على زر الجرس .

ولكن أصبعه كانت لا تزال بها بقية من ارتعاش .. ارتعاش ليس الكبر أو الضغط سببه .

ديسمبر ١٩٦٢

# الــزوار

ما كاد آخرهم يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة كالقطار المزدحم حين يصل إلى محطة النهاية ، حتى التفتت « مصمص » ( وهو ليس اسم دلع ولكنه اسمها الحقيقى ) إلى سكينة التفاتة حادة وقالت بصوت عال :

ـــ بقى اسمعى يا ..

واحتارت قليلا هل تقول لها يا بت يا سكينة أم سكينة فقط .. وسكينة كان اسمها سكينة وهى سكينة فعلا . وهو اسم قد يبدو ريفيا ولكنها لم تكن ريفية النشأة أو الملامح ! كانت من مدينة ما ، واحدة من عشرات مدننا أنصاف الكبيرة ، مؤدبة جدا خجولة جدا ورقيقة أيضا . وكانت تحتل السرير المجاور لمصمص المرأة الضخمة الكبيرة الصدر والثديين التى يميل لونها إلى السمرة ، ودائما ترتدى قميص نوم أبيض .

والسريران كانا فى عنبر واحد من العنابر الكبيرة التى تحفل بها مستشفياتنا العامة والمركزية والجامعية والصدرية ، العنبر المعهود ذو الاثنين والعشرين سريرا .. عنبر الحريم يسمونه .. له تومرجية سليطة اللسان ومنفوخة الجسد مكورة كالبطة ، وتومرجى أعمش مفروض ألا يدخل العنبر وأن يقتصر عمله على المطبخ ودورة المياه ، ولكن أحدا لم يعلن يوما هذا المفروض وأحدا لم ينفذه .

وكانت سكينة الضعيفة الرقيقة الحنونة التى تحس إذا أطلت النظر إليها أو عمقته أن هناك فعلا أناسا ضعفاء محتاجين إلى الشفقة ، كانت مريضة

بمرض مزمن ولها فى المستشفى ثلاثة أشهر وأمنيتها الكبرى أن تغادره وتخرج .. ولكنهم لا يخرجونها ولا يصرحون لها بالخروج ، ولا يفعلون هذا بعنف أو بحزم كما قد يعتقد البعض .. إنهم يفعلون بأنصاف الابتسامات أحيانا وبهز الرءوس والطبطبة أحيانا أخرى .. وأحيانا بمجرد القول : حالا إن شاء الله تخرجى .. أما سبب بقائها أو إبقائها فهو أن مرضها من نوع غريب يحلو للأستاذ أن يحاضر طلبته وأطباءه الصغار عليه .. وأن يريه لزملائه الكبار كما لو كان يريهم قطعة نادرة ضمن مجموعة أصداف أو طوابع بريد يقتنيها .

وسكينة لم تكن مقطوعة من شجرة .. كان لها إخوة ، فى الحقيقة أخ واحد غير شقيق وأختان .. وكان لها خالات وعمات وقريبات كأى إنسان منا وكل إنسان . ولكن رغم هذا كله فلم يكن لها زوار بالمرة . طوال الأشهر الثلاثة التى مكثتها بالمستشفى لم يزرها أحد .. من يوم أن أتى بها أخوها وأودعها العنبر لم تر وجهه . تلك حقيقة تعرفها هى ويعرفها الجميع حتى التومرجية السليطة اللسان تعرفها .. وقد تكون مشكلة الخروج تلح على سكينة فى أحيان كشىء لا بد منه ولا بد من حدوثه ولا بد أن تكلم الطبيب الكبير بشأنه ، ولكن مشكلتها الأكثر حدة فى الواقع أن يزورها أحد .. أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد يدا توقظها من النوم أو الغفوة وتقول لها : قومى ياسكينة .. جالك زوار .

طوال أيام الجمع والاثنين — والحقيقة طوال أيام الأسبوع — يفد العشرات والمئات والآلاف على المستشفى ويوزعون على عنابره ثم على أسرته ، وقد يخص كل سرير زائر أو خمسة أو عشرة .. ما عدا سريرها هى لم يكن يهوب ناحيته أحد ، أو للدقة كان زوار جارتها يتخذون سريرها كأريكة

يجلسون عليها ، وهى من خجلها لا تعترض أو تأتى بحركة تسبب حرجا لأحد . كانت تغادر الفراش نهائيا وتذهب تتمشى فى الطرقة أو تخرج إلى شرفة العنبر القذرة .. هناك تتخذ مستودعا لأكوام الزبالة وقشر البرتقال والموز واليوسفندى الآتى لا بد مع كل زيارة .

وهناك .. فى تمشيتها هذه كانت سكينة تحزن وتنقبض وتحس أنها مظلومة ، وأن لا بد ثمة خطأ فى الكون جعلها تبقى بغير زوار .. إن أخاها باستطاعته أن يخطىء مرة ويزورها .. وكم زارت هى إخوتها وبنات خالاتها وكان واجبهم فى هذه الحالة أن يردوا الزيارة .. ماذا حدث حتى جمد قلوبهم وقساها ؟ ماذا حدث حتى نسيها الجميع هكذا ونسوا أنها فى مستشفى ؟ ماذا حدث حتى تنقطع صلتها هكذا بعائلتها وأقربائها وحتى بصديقاتها وبالدنيا كلها ؟ لم تكن تدرى .. حتى مجرد إرسال خطاب .. ما أرسل لها أحد خطابا أو بعث بسلام .

إحساس لم يكن يشاركها فيه أحد . كانت أعمق أعماق قلبها هى التى تكتئب وتحزن فقط .. أما كل ما على السطح من وجه وملامح فقد كان يلتف دائما بابتسامة لا فرق بينها وبين مئزر الصوف الذى تتلفع به .

وطالت المدة ثلاثة أشهر .. وأربعة وخمسة ، والمرضى يتغير معظمهم حتى لم يبق من القدامى سوى جارتها مصمص . والوضع على ما هو عليه .. وضع عجيب غريب . فهى صخيح ضيقة بالمستشفى والبقاء فيه تريد بشق النفس أن تخرج وتغادره .. ولكنها فى نفس الوقت وإذا ما سألت نفسها لا تعرف أبدا لمن وإلى أين تذهب وماذا بالضبط ستفعل .. لقد كانت قبل دخولها تحيا مع أخيها تخدمه فى انتظار أن يتزوج هو أو يأتيها هى عريس ، ولكنها مرضت وكانت تقضي الليل كله تنهج وتكح حتى ضاق بها الأخ وانتهز

أول فرصة وأدخلها المستشفى .. ربما كى لا تعالج بقدر ما يتخلص منها ومن حشرجات أنفاسها . بل إنها سمعت أنه بعد دخولها المستشفى تزوج وعزل من البيت . وشقيقاتها كلهن متزوجات ، وهى ليست جميلة حتى يرحب بها زوج أى أخت .. بل لقد ذبلت وكبرت حتى على الزواج فإلى من تذهب وإلى أين ؟

وضع عجيب غريب فهى ضيقة بالمستشفى ضيقا لا حد له ، ومستسلمة لهذا الضيق والحياة فى المستشفى استسلاما لا حد له أيضا ، كالسجين الذى يتوق إلى الخروج من السجن إلى الحياة والحرية ، ولكنه حين يجد أنه إذا خرج فلن يعرف ماذا ولا كيف يفعل بحريته تلك يستسلم للسجن . يضيق به ويستسلم له ويكاد يجن بين الضغطين .

ولم تأت المسألة فجأة .. بل وإلى الآن لم تفكر فيها سكينة تفكيرا جديا أو تدبرت ما فعلت ، ولكنها هكذا جاءت .. مصمص كانت زوجة أحد المعلمين الكبار الذى لا يقل عدد أقربائهم وأنسبائهم وأولادهم ونسائهم وبناتهم عن المئات بأى حال من الأحوال ، ولهذا كان لا يمر يوم دون أن يزور مصمص لا أقل من خمسة أو ستة زوار . ويوم العطلات والأعياد يرتفع الرقم حتى يكاد يصل إلى الخمسين .. وكان يبدو على مصمص أنها فى الوقت الذى تعتب فيه على فلانه الفلانية لأنها لم تزرها ، ما يكاد الزوار يغادرونها حتى تلهث تعبا وحتى تغمغم ببرطمة لا يفهم منها سوى الضيق الشديد بالزيارة والزوار ، والمسألة بدأت بأن راحت سكينة تسأل مصمص عن الزوار إذا قدموا من هم ، وما هى درجة قرباهم لها ، وماذا يشتغلون ؟ ولم يكن الأمر مجرد سؤال .. دأبت سكينة على ملاحظتهم بدقة ومعرفتهم بالاسم حتى لتطفح السعادة من وجهها حين تقول لمصمص بعد خروج زائر :

— مش ده كان مصطفى ابن خالتك اللى بيشتغل فى السكة الحديد ؟

فتبهت مصمص وتقول :

ـ الله .. وانتى إيه اللى عرفك ؟

حينئذ تحس سكينة الناحلة الهادئة الساكنة بسعادة داخلية لا حد لها .. غير معقول بالمرة أو مقبول فقد أصبحت لمجرد أنها عرفت من الزائر وخمنته وجاء تخمينها بالضبط مطابقا للحقيقة .

ولكن هذه السعادة ـــ بالتكرار ـــ لم تعد تحدث ، ووجدت سكينة نفسها مدفوعة إلى خطوة أخرى كى تحس بنفس سعادتها السابقة . فبدأت تقدم مساعدات ، وتسرع مثلا وتحضر كراسى لزوار مصمص ـــ أو إذا أرادت الأخيرة أن تعزم عليهم بالقهوة أو الشاى أو الغازوزة ـــ أسرعت سكينة إلى البوفيه تحضر الطلبات بنفسها . وكانت مصمص تأخذ الأمر فى أوله باعتبار أنه نوع من الطيبة من سكينة لا أكثر ، ولكنها بدأت تعجب فعلا وقد راحت سكينة تقوم بأعمال غير معقولة أبدا .. تأخذ الأطفال من الأمهات الزائرات وتداديهم أو تذهب بهم إلى دورة المياه ، وتلعب مع الأبناء الكبار وتقول لهذا الزائر .. والنبى وحياتك بقى سلم لى على فلانة وفلان وكأنهم أقرباؤها هى .

بدأت مصمص تستعجب ، ومصمص لم تكن سهلة ولا طيبة ولا مسكينة أبدا . إنها جهنم الحمراء إذا انفتحت وإذا رأت فى الأمر ما يريب .. وكانت سكينة قد زودتها فى نظرها كثيرا وبشكل أصبح لا تفسير له ولا تبرير ، تجلس مع الأقرباء والأصهار طوال الزيارة ولا تغادرهم للحظة وكأنها منهم وعليهم ، يتحدثون عن أدق أدق أمورهم العائلية الخاصة فلا تخجل ولا تبتعد . بل أكثر من هذا تهتم بها وتناقشها مناقشة المتحمس الغيور ، وتبدى الآراء أيضا .. وتنتظر مصمص على أحر من الجمر أن « تحس » سكينة مرة فتقوم أو تغادر الفراش .. أو على الأقل تولى انتباهها إلى الناحية الأخرى بلا فائدة ، إذ كانت سكينة لا تفعل

شيئا من هذا أبدا ، بل تظل طوال الجلسة بأكملها وبعد الجلسة أيضا تتحدث وتعقب وتحاول أن تدخل مصمص فى أخص الشئون وفى الغويط .. ومصمص تكظم وتكظم . فصحيح أن سكينة تتدخل ولكنها تفعل هذا وهى راقدة فى نفس فراشها لاتغادره ، وعلى العكس إن زوارها هم الذين يجلسون على فراش سكينة وبهذا يعطونها الفرصة للاندماج والتدخل .

بل تطور الأمر إلى ما هو أكثر ، وبدأت سكينة تقتنص زائرا أو زائرة من الجالسين على فراشها وتنخرط فى حديث لا ينقطع معه أو معها بحيث تنتهى الزيارة وهم لم يتبادلوا كلمة واحدة مع قريبتهم مصمص ، وكأنهم جاءوا لزيارة سكينة أصلا .

ولقد تكرر الأمر مرة ومرة ومصمص صابرة تكظم ، إلى أن كان هذا اليوم الذى قررت أن تنفجر فيه . وهكذا ماكاد آخر زائر فى يوم الزيارة يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة كقطار وصل إلى محطة النهاية ، حتى التفتت مصمص إلى سكينة التفاتة حادة وقالت بصوت بالغ العلو :

— بقى اسمعى يا ..

واحتارت قليلا .. أتقطع العشم والعلاقة والعيش والملح مرة واحدة وتقول يا بت يا سكينة ، أم تكتفى بنهرها وتقول يا سكينة فقط ؟ فإذا قالت لها يا سكينة فكيف تستطيع أن تصب عليها بهذه البداية ما يتفجر به صدرها الضخم العالى الأسمر من غضب وضيق ؟ احتارت مصمص .. وكالبندقية صوبت عينيها إلى سكينة وكأنما لتزيد برؤيتها لها جرأتها وعنف انفجارها .. كانت قد قررت أن توقفها عند حدها وأن تنذرها بأنها إذا استمرت فى اقتناص زائرا أو أكثر من زوارها هكذا فسوف تمرمط الأرض بزوارها — زوار سكينة إذا جاءوا — والعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم .

صوبت مصمص عينيها إلى سكينة لتجدها راقدة فى سريرها نصف مغطاة الجسد تحملق أمامها كمن يجتر ذكرى لحظة سعيدة مرت . وفجأة اكتشفت مصمص الجهنمية أن تهديدها الذى يكاد يفلت من فمها لا معنى له بالمرة . أجل هكذا .. فى ومضة مفاجئة اكتشفت مصمص أن سكينة لا يأتيها زوار ولا ينتظر أن يأتيها أحد .. وهكذا بعد أن كانت قد استدارت واستدار السرير لا ستدارتها وقالت : بقى اسمعى يا ..

وحين التفتت سكينة بدهشة ونوع من الذعر تسأل : نعم يا ست مصمص ؟ لم تغير مصمص رقدتها ولا رفعت عينيها عن وجه سكينة .. كل ما فى الأمر أن صوتها انخفض فجأة حتى كاد لا يسمع .

وقالت :

ـــ لاه .. ولا حاجه .. ده كلمه كده وعدت .

قالت هذا وهى ترمق الفتاة بعينين مشتتتين فوق وجهها يكاد يطفر منهما الدمع .. وظلت مثبتة عينيها فوق وجه سكينة لا ترفعهما وكأنها تراها لأول مرة .. رفيعة نحيلة مقطوعة من شجرة ..

ديسمبر سنة ١٩٦٢

# معاهدة سيناء

الأبطال هنا ثلاثة .. لا بل أربعة إذا حسبنا « المكنة » التى كان لها دور لا يقل خطرا عن دور الإنسان .. وأول الثلاثة هو « ماشنسكى » الروسى الذى يسميه العمال فى المعسكر « ماشا » ، وهو أحمر الوجه فاقع الحمرة ، تلك التى تميز وتقف حدا فاصلا بيننا نحن شعوب آسيا وأفريقيا وبين الأوربيين .. والثانى كان « بيل » أو إذا أحببت الدقة « وليم » الأمريكى المعضم ذو القتب والنظارات والجسد الرشيق النحيل الذى ربما طار فى الهواء لو نفخته . أما الثالث فلم يئن بعد أوان الحديث عنه .. أما رابعة الأربعة « المكنة » فهى آلة ضخمة جدا فى حجم البيت أو أكبر قليلا ، وثمنها كذا عشرة آلاف جنيه ، وأصلها روسى أنتجتها مصانع ليننجراد وجاءت إلينا كجزء من القرض وجاء معها ماشنسكى ليديرها ويشرف عليها . ومن أول يوم له فى المعسكر ألغى العمال والموظفون كلمة ماشنسكى نهائيا واستبدلوها بوعى أو لا وعى بكلمة « ماشا » .. والمكنة وماشا والمعسكر كله .. هناك على مدد السفر .. بعيدا جدا قرب حدودنا الشرقية المطلة على ساحل البحر الأحمر .

وذات يوم حدث للمكنة مثلما يحدث لأى مكنة فى الدنيا أن تعطلت ، ووقف ماشا أمامها يدور حولها ويفتح مفاتيح ويغلق صمامات ويختبر ويجس .. وأخيرا نطق وقال للمهندس المصرى المشرف على المعسكر وهو رجل فى حوالى الأربعين وشعره أسود تماما وله كرش وكان زمان يعتبر نفسه دون جوان قال ماشا بوجه صارم مبتئس : إن الآلة قد كسرت فيها قطعة مهمة جدا ولا يمكن أن

تعمل إلا إذا جيء لها بقطعة الغيار تلك .

وهكذا أرسل إلى مركز المؤسسة رسالة مستعجلة بطلب النجدة وبقى هو والخمسمائة عامل والخمسون موظفا وتكنيكيا فى انتظار رد القاهرة .. وهدأت الحركة فى المعسكر فلا حفر ولا ضوضاء آلات ولا أصوات مكن ولا أغانى عمل .. لا شىء سوى مواويل الحظ والكسل تنطلق خافتة من عقيرة حمدان أبو طالب ، صعيدى قنا القح والمغنى شبه الرسمى للمعسكر .

هدءوا جميعا ينتظرون ولكنه انتظار بلا أمل ، فلم يكن أحد منهم يتوقع أو يصدق أن الروتين فى المعسكر سيحقق المعجزة ، وأن قطعة الغيار ستصل بأسرع وقت كما طلب السيد عبد الحميد فى استغاثته .

ورغم أن رسالته أوقعت مركز المؤسسة بالقاهرة فى دوامة حرج شديد ، إذ أن قطع غيار هذه الماكينة بالذات لا توجد إلا فى روسيا .. ودون إحضارها من هناك مصاعب نقدية ومصرفية واقتصادية لا تعد ولا تحصى بحيث لا أمل فى حضورها قبل ستة أشهر أو سنة .

رغم هذا إلا أن قطعة الغيار أحضرت على وجه السرعة وجاءت فى وقت كان المعسكر كله قد جاءه أمر بالاستعداد للرحيل وإنهاء العملية ، وقد رأى المركز أن يستغنى عن الحفر فى تلك المنطقة كلها .

أما كيف أحضرت تلك القطعة فلا أحد يدرى للآن ، ولا أحد يدرى كيف تسرب الخبر إلى شركة « انترناشيونال » الأمريكية ، ولا كيف استطاعت بين يوم وليلة أن تتصل بالمركز وتخبره أنها على استعداد لتوريد قطعة الغيار اللازمة وفى الحال .

وبين تهييص وطبل وأغان وفرحة وصلت قطعة الغيار إلى المعسكر ، ووصل

معها المستر « وليم » أو كما أصبح هو يطالب الذين يعملون معه بأن يطلقوا عليه الاسم الذى تعود الناس أن ينادوا به وليم وهو « بيل » .. ما كاد يظهر المستر بيل بالعربة وفوقها الصندوق الخشبى الضخم الذى يحوى قطعة الغيار حتى اعتقد الجميع أن خلاص المشكلة انتهت ، وليس هناك سوى بضع ساعات يتم فيها تركيب قطعة الغيار ويستأنف العمل سيره .

وبأنفسهم ذهب العمال وعلى رأسهم السيد عبد الحميد يزفون الخبر لماشا الذى لم يكن قد غادر من لحظتها حجرته . وكانوا يتوقعون أى شىء إلا ما حدث .. إلا أن يزجرهم ماشا ويهب فى وجوههم ثم ينطلق خارجا ذاهبا إلى حيث قد تجمع حول المكنة عدد كبير من الناس يحيطونها ويحيطون بيل وصندوقه الخشبى معها . وما كاد يصل حتى صرخ ماشا فى الجميع قائلا :

ــ لا .. لا يمكن .

ــ لماذا يا ماشا ؟

ــ مستحيل أن تصلح قطعة غيار أخرى غير القطع الروسية للمكنة .

ــ ولماذا لا نجرب ونرى ؟

ــ لا .. لا يمكن .

وقلت إننا لا نيأس .. وعلى هذا بينما كان ماشا يرفض ويصر على الرفض كان العمال يفكون الأسلاك من حول الخشبة ويخرجون قطعة الغيار من الصندوق ويضعونها أمام ماشا قائلين :

ــ فلنجرب .

ولكن ماشا أصر على الرفض قائلا :

ــ إن المكنة السوفيتية لا تصلح لها إلا قطع غيار سوفيتية .

قال هذا وهو يشدد على كلمة سوفيتية الأولى والثانية .

وانقضى يوم وكاد يوم آخر ينقضي والتوتر لا يزال قائما على أشده ، والعمال جالسون القرفصاء ورءوسهم بين ركبهم يسلون بعضهم البعض ويضحكون ، وكلما خرج ماشا من حجرته أو دخل لا بد يلمح هذا العدد الضخم من العمال ، والظاهر أن شيئا قد تغير في تفكيره إذ فوجئ الجميع به يخرج إليهم قائلا إنه لأجل خاطرهم فقط ولأجل أن يثبت لهم أنه على حق وأنهم على خطأ ، سيجرب أمام أعينهم قطعة الغيار الأمريكية .

وهاص المعسكر فجأة .

وكان لا بد لاختبار قطعة الغيار الجديدة من عقد « كونسلتو » هندسى من ماشا وبيل والمهندس المصرى المختص ، مؤتمر ظل ماشا فى أوله ينظر شزرا وباحتقار شديد إلى بيل ، وبيل يقابل نظراته بعينين كأنهما فوهتا مسدسين من مسدسات رعاة البقر في أفلام السينما .ولكن الحقيقة أن تلك النظرات لم تستمر كثيرا فسرعان ما أدرك ماشا أن بيل يفهم حقيقة فى الميكانيكا ، وأن الناس فى الولايات المتحدة ليسوا جهلة كما يظن . واكتشف بيل هو الآخر أن ماشا الروسى ليس مجرد أسطوانة مسجل عليها أقوال ماركس ولينين ، وإنما هو آدمى أيضا يغضب أحيانا ويثور .. وأحيانا يرضى ويبتسم ابتسامة صافية جدا كابتسامات الأطفال .

وكان عمل المهندس المصرى أول الأمر أن يمنع الاحتكاك المباشر ويلطف الكلمات الحادة ، ويقول لبيل : طب امسحها فى دقنى أنا . ويقول لماشا : معلشى عشان خاطرى . إلى أن بلغ مراده وبدأ الجو يهدأ وبدأ الاثنان يتناقشان المناقشة الهندسية الخالصة .

وثبت من المناقشة ومن الاحتكام للمقاسات ومن التجربة العملية ، أن قطعة الغيار الأمريكية تصلح لتحل محل القطعة الروسية .

وتهلل وجه المهندس المصرى طربا للنتيجة .. النتيجة التى كان مفروضا أن يسر لها ماشا وبيل ، ولا أحد يدرى إن كان أيهما قد تولاه السرور . إنما الذى لاشك فيه أن أحدا لم يكن ليستطيع أن يمنع الصدام الذى نشب حالا .

فما دامت قطعة الغيار قد أثبتت صلاحيتها فلا بد إذن من تركيبها وتسيير المكنة بها .. من يركبها ؟ ذلك هو الصدام المروع الذى نشأ .

ماشا يقول : إن المكنة روسية وأى تغيير فيها أو تبديل يجب أن يتم بمعرفته هو . وبيل يقول هذه المكنة كانت روسية وهى الآن وبغير قطعة غياره الأمريكية مجرد كتلة من الحديد الخردة ، ولا بد له هو أن يتولى عملية التركيب والتشغيل .

ويثور ماشا ويقول لايمكن أن أسمح لمندوب شركة أمريكية احتكارية رأسمالية متعفنة أن يعيث فسادا فى مكنة أنتجتها أيدى الطبقة العاملة السوفيتية .

ويستشيط بيل غضبا ويقول : أيها الشيوعى ال ..

وترتفع أكثر من مائة يد صعيدية وبحراوية .. أيد مشققة وأيد ناعمة مثقفة تحول بين الاثنين وتلطف الموقف .

ويعود العبوس العظيم يحتل وجه السيد عبد الحميد ، فخلاف ماشا وبيل ليس نعمة ولكنه نقمة تهبط أول ماتهبط فوق رأسه .

وتطور الخلاف وتبودلت الكلمات الزاعقة الطائشة حتى عاد المعسكر إلى انقسامه ، فلازم ماشا غرفته وجلس بيل جلسة المتحفز أمام بابه ، ووقف السيد عبد الحميد ينقل بصره بين المكنة المفتوحة البطن وبين قطعة الغيار الراقدة بجوارها وهو لا يحس مطلقا بالشمس المنصبة فوق رأسه . وبآخر ما يستطيع من جهد حاول مرة أخرى أن يجمع ماشا وبيل كى يتفقا ويركب أحدهما أو كلاهما القطعة ويستأنف العمل ، ولكنه ما كان يجمعهما إلا ليتشادا ويتفرقا .

وكل منهما يقف موقفا صلبا عنيفا وكأنما قد استحضر فى جسده الواحد عناد

أمته بأسرها وكل طاقتها على القتال . أجل فى تلك البقعة النائية من شبه جزيرة سيناء ، وتحت لفح نيران حامية تتأجج من صفرة الأرض وزرقة السماء .. هناك حيث لا حياة ولا شىء سوى الرمل والصحراء والجبل والعمل .. هناك حيث المعسكر مقام كان يقف ماشا وبيل وجها لوجه شابان متقاربان فى السن ولهما نفس المهنة وربما نفس الهوايات . ولكن كلا منهما مستعد أن يقتل الآخر مثلا لو ظل الآخر على صلفه وعناده . كل منهما عنيد صلب يريد أن يذبح الآخر ويصفى دمه .. كل منهما يعتقد أنه على حق وأنه لو تراجع قيد أنملة فكأنما كرامة بلده وشعبه هى التى تتراجع .

والحقيقة أن السيد عبد الحميد لم يكن يقف يراقب المكنة وقطعة الغيار وحده ، كان يقف معه محيى الدين — أو كما يسميه العمال « النمس » — وهو رغم نهمه الشديد وحبه لالتهام الطعام ، ورغم تزويغه من الشغل كلما عنت له الفرصة ، إلا أنه دائما حلال المشاكل .. عمل مع ماشا فالتقط منه الصنعة ، وعمل مع الألمان فتعلم الميكانيكا .. ورغم هذا فيدوبك كان يفك الخط ، ولكنه كان يقرأ الصحف بمهارة ، متحمسا أسمر مبتور البنصر الأيمن غزير العرق ، شعره أكرت قد أصبح له لون الصحراء الأصفر من كثرة ما علق به من تراب وغبار . ولكن أحدا فى ذلك الوقت لم يكن يلقى بالا كثيرا إلى النمس أو السيد عبد الحميد . فالجميع — حلقات حلقات — مشغولون بتتبع أخبار المعركة الدائرة بين ماشا وبيل وآخر أنواع الشتائم التى كان يطلقها كل منهما خلف الآخر وأمامه .. وعدد صفائح البيرة التى يقذفها ماشا ، وعدد جرعات بيل .

واستمر الأمر هكذا طيلة اليوم وحتى غربت الشمس وجزءا لا بأس به من الليل .

وفى الصباح فوجىء الجميع بشىء لم يكن يتوقعه أحد ..فوجئوا بالمكنة منذ

الصباح الباكر تدور وقد ارتفع صوتها وتوالت تكتكاتها تشق عنان السماء .

كان النمس على ضوء كلوب ، وبمساعدة زميل له قد قام من وراء بيل وماشا ومن وراء الباشمهندس فى الليل بتركيب قطعة الغيار الأمريكية والتصرف فى أجزائها وصواميلها حتى طابقت تماما المكنة الروسية .

وعلى صوتها هب الجميع من النوم غير مصدقين ، وتجمعوا بعيون نصف مغمضة يرقبون المكنة الدائرة وبجوارها النمس وعلى وجهه الطويل ترتسم ابتسامة ظفر عريضة ، والزيت يقطر من سواعده وجبهته ويديه .

ومن بين الوجوه ـــ مئات الوجوه ـــ تطلع ماشا إلى بيل ، وبدا من نظرتهما المتبادلة كمن سيوشكان على الانفجار ضحكا أو غيظا .

* * *

وظلت المكنة بعد هذا تدور .. وإلى الآن وهى لا تزال دائرة ، نصفها أمريكى ونصفها روسى ، والذى يديرها هو النمس بعينه ، وسمرته وبنصر يمناه المبتور .

ديسمبر سنة ١٩٦٢

# قصة ذى الصوت النحيل

فى مثل هذا الأوان ــ بصوت واهن كأنه الحفيف غير مبال باهت ، محدود ــ بدأ كل شىء ، وكانت المشكلة دائما أن يبدأ كل شىء .. مشكلتى ومشكلة زوجتى والآخرين وسأتحدث بالتفصيل عنهم . كنت هناك وكانت الدنيا ليلا أسود يخيف .. مليئا بالأشياء التى تخيف . هناك كلام لا بد أن أقوله لأى أحد ، لا بد أن يعرف واحد على الأقل كل شىء ، المهم كل شىء . »

نفس العمارة .. عمارتنا التى نسكنها الآن ، قلت لسايس الجاراج والبوابين عن كل شىء ، ووعدونى هم أنهم ساعة يرونهم سيخبروننى بكل شىء .. بالتفصيل كل شىء . السكان القاطنون فوقنا كويسين وعرفنا نتفاهم بسهولة ، إنما السكان اللى تحت ــ تحتنا ــ ناس كتير ، ساكنين فى الشقة الواحدة ييجى خمسين نفر ، كتير قوى زى النمل ، لو شفت عنيهم .. عيون غويطة إذا بصيت فيها تغرقك وتبلعك ، وبقهم واسع قوى يبلع البطيخة .. يبلع كل شىء ، إنما أصلهم عمرهم ما شافوا نفسهم أبدا ، لو شافوها مرة واحدة كان خلاص انتهى كل شىء .

شكسبير فى روايته بيقول : « العين ترى كل شىء ولا ترى نفسها » ، إنما عينى أنا بتشوف كل حاجة ، كانت هى اللى شافتهم ــ أول عين شافوهم ــ ومن ساعتها وفيه قدام عينى ضباب كتير كئيب زى ضباب الصيف فى يوم حر . ما اعرفش ليه ما اتخنقوش من الضباب ، بالعكس كانوا بيستخبوا منى فيه .. وحاولت أسترضاهم ، بعت لهم زوجتى يعنى .. شتموها . دول ولا كأن البلد بلدهم لوحدهم .. أصلنا اتاكلنا أونطة ، واحنا خلاص بننتهى ، وكل يوم عامل زى ما يكون بيقطع مننا كل يوم

حتة ، لما ح ييجى اليوم اللى ما يفضلشى فينا حاجة .. وبيسلطهم علينا وكل يوم تأميم . هم سمعوا حكاية التأميم دى وخرجوا لك من الضباب وحاصرونى . عايزين منى إيه ؟ ما تعرفش ! ما عندهم البلد واسعة وغنية قوى لو حاولنا نبيعها تتباع بكام؟ بمليون مليون مليون .. إنما دلوقت مصر دى ماتساويش عندى حاجة أبدا .. سرقوها اللصوص . أمال نسميهم إيه ؟ لصوص ، نهب ، سلب قشوطة . ده فيه أسرار كتير قوى بس مش قادر أقول على كل حاجة . أنا حاولت كتير معاهم بالذوق بالحيلة مافيش فايدة ، عايزين كل حاجة حتى ابنى كانوا عايزين ياخدوه لولا وديته عند عمته فى مصر الجديدة .

ضحكوا على الخدامة وبنجوها وجت لنا مبنجة ، إنما ما سابتوش بالزعيق دور وبالمحايلة دور .. كانت النتيجة إنهم قالوا على اللى قالوه ، ولما حصلت الحكاية كنت أتوقع طبعا إن مراتى تقف جنبى ، تلاقى عيلة مراتى حد منهم مسلطها على .. طبعا كان لازم تاخد موقف إما تبقى معاهم وإما تبقى معايا . للأسف ده يحصل منها .. جايز يكون حد من عندنا اتهمها بأنها السبب فى الحالة اللى أنا فيها دى ، وجه رده عليها خلاها تتنرفز وتأخذ الجانب التانى . وكل اللى بيحصل لنا ده من غلطنا احنا . لو كنا سبقنا وضربنا قبل ما ننضرب ماكنش حصل حاجات من دى ولا كانوا جابوا سيرة الملكة فريدة . أصلها ساكنة قدامنا وعمرها ما ظهرت لنا وشفناها فإيه الداعى يشركوها فى الموضوع ؟ وانت عارف بقى .. أطلع ألاقيهم مراقبين ، أدخل عينهم ورايا .. أصل عينيهم صعبة قوى وخصوصا عينين السكان اللى تحت دول . كل الصميم . مش ع الحسد يعنى .. حسد إيه ؟ كانت تبقى أهون . ده فيه حاجة تانية أكتر م الحسد كتير .. حاجة زى النار لما بتولع بتقضى على كل شىء . لما ظهرت الحكاية واتأكدت أن الملكة فريدة مالهاش ذنب .. بره الموضوع خالص . وإن اللى تحت هم اللى كانوا ملفقين التهمة ، أخويا الكبير جه وقال لى لازم نعزل خلاص

ماعدناش قادرين نقف قصادهم ، وإننا لازم نسلم ونعزل .

قلت له مش ممكن يهزمونا ، أنا لا يمكن أعزل .. أنا شاب فى الأربعين إنما خلونى شيخ فى التمانين .. نعزل ليه ؟ ونهزم نفسنا بإيدينا ليه ؟ مش كفاية هو علينا .. هو فاكر نفسه كل حاجة ! هو فاكر إن أى حاجة عايز يعملها يقدر يعملها ! هو فاكر إن الناس رغيف عيش يفضل يقطعه بالسكينة حتة حتة لغاية ما يخلص عليه ؟ هو عايز يعمل مننا بنى آدمين زى الحيوانات من غير إرادة ممكن يسوقها زى ما هو عايز ! بيسلطهم علينا .. السكان اللى تحت بيسلطهم علينا يراقبونا وياكلونا بعينيهم أكل ، عينيهم سوادها كله جوع وبياضها أسود من سوادها .. أنا بارفض ولا أزال أرفض وح اقاوم النظرات والكلام وح افضل أقاوم للنهاية ، أنا إنسان لى كيان وعيلتى ولى أرضى ، حتى لو خدوها برضه بتاعتى ..

أنا حاولت كتير أتجنبهم ، وقعدت على طول فى البيت عشان ما أقابلشى حد فيهم طالع السلم واللا فى الأسانسير . أصل لما حد منهم كان يبص لى كنت بحس إنى بغرق ، وغرقان لشوشتى فى نار سوده جوه عينين ثابتة زى عينين الميتين ، اسأل بتوع الجاراج يقولوا لك .. بقوا يجيبوا سلالم حبل علشان ينطوا علينا من الشبابيك فسمرنا الشبابيك ، بقوا يجولنا من تحت عقب الباب فبقيت أحط أكياس رمل وراء الباب ، وأحط الكنبة كمان عشان ظهرت لنا وشفناها فإيه الداعى يشركوها فى الموضوع ؟ وانت عارف بقى .. أطلع ألاقيهم مراقبين ، أدخل عينيهم ورايا .. أصل عينيهم صعبة قوى وخصوصا عينين السكان اللى تحت دول . كل ما يقدروش يزقوها . لما لقيوا مفيش فايدة بقوا يسلطوا على التمرجى يدينى الحقنة ، وكانوا يدوبوا مية عينيهم فيها ويحقنى بيها فى العضل ، أقوم أحس بعد كده بيهم ، هنا جوايا ، وآخرتها قالوا لكل الناس إنى عيان والناس صدقوهم . تصور المصيبة الناس تصدقهم وتكدبنى أنا ، كل الناس تصدقهم — حتى مراتى أنا تصدقهم — وتتفق مع الدكتور انهم يدونى حقنة بنج

عشان ما اقاومش ، كانوا عايزين يدونى الحقنة عشان ما اقدرش أعمل حاجة قدام السكان اللى تحت .. خطة موضوعة .. وللأسف زوجتى اشتركت بعبط وهباله فيها .. يخدرونى أنا عشان دكهم يهجموا عليا وياكلونى . أنا عندى كلام كتير عايز أقوله .. كلام خطير ! ده خسر كل حاجة حتى مراتى ، عايز أقوله لأى حد يعرف الحقيقة عشان ييجى اليوم اللى كل الدنيا تعرفها فيها . لازم حد يعرف احنا قاومناهم إزاى ، وإننا رغم كل شىء ما عزلناش ، وأن الملكة فريدة مالهاش ذنب فى الموضوع اللى حاولوا يعملوه بينا وبينهم .. واسأل البوابين وبتوع الجاراج .

أنا زهقت خلاص من محاربتهم . بيتهيألى إنى أسلم زى أخويا وأعزل .. واللا أسلم ليه ؟ ده يبقى انتصار لهم ويفرحوا فينا .. بس أنا خلاص بعدونى عنهم ومش قادر ولا عارف أقاوم . تفتكر كل شىء انتهى ؟ تفتكر انتهى كل شىء ؟ صحيح كل شىء أصبح لا شىء . تصدقها انت دى ؟ هو احنا عقب سيجارة نتشرب ونتفعص لا شىء ؟ إزاى الناس حواليه ساكتة وكأن مافيش حاجة حصلت ؟ إزاى بياكلوا ويشربوا وهم مبسوطين ؟ هم مش عارفين إن كل شىء أصبح لا شىء ، أنا لسه عندى كلام كتير وخطير عايز أقوله بس ( مستمرا بصوت واهن كأنه الحفيف ، غير مبال ، باهت ، محدود ) لازم حد يعرفه ، لازم حد يعرف الحقيقة اللى ما حدش راضى يعرفها .

ديسمبر سنة ١٩٦٢

# الورقة بعشرة

كان صلاح زوجا ، وكانت له ابتسامة ليست كالإبتسامات الحية تولد طفلة طازجة وتتفتح فجأة على الوجه ثم تزول ، ابتسامة كانت لا تظهر ولا تختفى ولا تولد أو تموت ولكنها محنطة على وجهه كالمومياء . وكانت بالضبط تعبر عن حياته فهو الآخر يحيا كالمومياء المحنطة ، أو على الأقل كان هذا رأيه فى نفسه ، فهو زوج وهو كمعظم الأزواج ساخط على الزواج يحس أن حياته المملة الرتيبة تقتله وتميت فيه الحياة بالتدريج .

ولهذا كانت أمانيه .

وهز رأسه وحسرات كثيرة تتبعثر من فمه ومن قلبه . مستحيل ! كيف يحتفل بعيد زواجه من روحية ؟ وكيف يهدى إليها شيئا هى التى لم تفكر أن تهدى إليه إلا الكلمات السامة المنتقاة ، والشخطات التى لا رحمة فيها ولا عاطفة ؟

وهكذا لم تطل حسراته ، فقد أعاد العشرة الجنيهات إلى الخزانة وأغلق أدراجه ، وكان موعد الانصراف قد حان فأخذ طريقه إلى الباب ، والشارع ، ومن ثم إلى البيت وهو يحس بمغص حاد ينتاب قلبه ، ومرارة تملأ نفسه ، وكأنه ذاهب لقضاء بقية اليوم فى السجن المؤبد الذى عليه أن يقضى بقية عمره فيه .

ولكنه طوال الطريق كان يفكر فى الورقة ذات العشرة الجنيهات ، والإهداء الذى كتبه عليها ويقول لنفسه : نعم ، لا بد أن هناك حياة أخرى .. حياة مليئة بالهدايا والحفلات والبسمات .

ومع أنه كان فاقد الأمل فى حياته تلك وزوجته ، إلا أنه لم يمنع نفسه من تمنى

شىء : أن تكون روحية قد تذكرت المناسبة وأعدت له مفاجأة ، أو على الأقل استعدت لتحتفل بالعيد .

غير أن المفاجأة التى كانت تنتظره أنه لم يفاجأ بجديد .. فما أن فتح الباب حتى طالعه صراخ الأولاد ، وحتى طالعته روحية نفسها واقفة فى وسط الصالة — وشعرها واقف أيضا — وهى تحاول أن تضرب ابنه الأصغر ، والولد يصرخ وهى تصرخ ، والجدران تتهاوى وتستغيث ، والأبواب تتخبط ، ورائحة القلى والطبيخ تتصاعد كالغازات السامة — والمدرة لليأس والكآبة — والأطفال يتعلقون برجليه ويتعثر فى أرجلهم ، وألف مشكلة وكارثة ومطالبة ... لا بد تنتظره .

إنها خالقة تلك الحياة ، وتلك الزوجة .

ألا تعرف ما هو اليوم ؟

أجل اليوم ، اليوم يوم عشرة واللبان لم يأخذ نقوده ، وبائع الثلج والأولاد جننونى ! ولا شىء آخر ! لا شىء إلا الهم والغم والدروس التى يجب أن تأخذها بنتك قبل الامتحان لتنجح . إنه يكرهها .. إنها لم تعد امرأة يشتهيها ولا حتى صديقة يأنس إليها . ما الذى يربطه بها وكل ما بينهما حرب مستعرة مستمرة وخلاف يتجدد فى كل ثانية ؟ كل يوم يفكر عشر مرات فى طلاقها أو الانتحار وكل يوم لا يطلقها ولا ينتحر ! وكل يوم يفكر فى حياة جديدة وزواج جديد وكل يوم لا ينفذ حرفا واحدا من القرارات الحازمة الباترة التى اتخذها ! كل يوم يفكر حتى فى خيانتها وكل يوم لا يخونها .. ما الذى يربطه بها ؟ حتى الأولاد إنه يكرههم من أجلها ويكرهها أكثر من أجلهم . ومع هذا لا يتركهم جميعا « ويهج » ولا يتركونه .. ما الذى يبقى هذه العائلة السخيفة متماسكة وكل ما فيها يتنافر مع كل ما فيها ؟ الخلاف البسيط يؤدى إلى نقار والنقار يؤدى إلى

شجار ثم يتطور الأمر ويغادر المنزل غاضبا ، وحين يصل إلى السلالم تخرج له الزوجة وتقطع الشجار وتقول :

ــ إياك تنسى تشترى البزازة ؟

ويخرج وهو مصمم على ألا يعود بله أن يشترى البزازة .. ولكنه ما أن يلمح أجزاخانة حتى يتوقف ، ثم يتصور خيبة أملها حين يعود بلا بزازة فيدخل ويشتريها .

لماذا يشتريها ؟ ولماذا وكل ما بينهما حرب يراعى شعورها وتراعى أحيانا شعوره ؟ ما كنه تلك العلاقة الغريبة التى تجمعهما ؟

لماذا يستسلم لتلك الحياة ، لماذا لا يبدأ حياة جديدة ، لماذا لا يبدؤها فورا والآن ؟

ولكنه لم يبدأ شيئا أبدا ، فقد دخل كالعادة وحل بعض المشكلات وعقد بعضها وتبودلت بضع زغرات وتلميحات وشتائم ، وتغدى وكالعادة نام ، وحين استيقظ بعد الظهر كان قد نسى كل شىء عن ١٠ مايو وعيد زواجه ، والعشرة الجنيهات وكلماته المكتوبة فوقها بخط أنيق .

* * *

ومرت الأيام وهو لا يحس بمرورها . فمن يوم أن تزوج لم يعد يحس بالزمن وكأنما فقد ذاكرته ، حتى أنه لا يذكر ماهية نفسه قبل الزواج وكأنما وعى فوجد نفسه زوجا .

مرت الأيام وهو دائب الإحساس إنه يذوب ويذوب ويفقد ذاته ونفسه ، حتى فوجئ ذات يوم بشىء استغرب له جدا .

كان يفحص مبلغا واردا إلى البنك وإذا به يعثر على ورقة من ذات العشرة الجنيهات مكتوبا على دائرتها البيضاء : إلى زوجتى العزيزة .. بمناسبة عيد زواجنا

الخامس .

ولم يكن الخط خطه .

واحتجز الورقة وظل يقرؤها ويضحك من أعماقه .

كان أحدهم لا ريب قد ساقت إليه الصدف الورقة التى كتب عليها الإهداء ففطن أن أزواجا صالحين يهدون إلى زوجاتهم أوراقا كتلك فى أعياد زواجهم ، ففعل مثلهم . وكانت النتيجة هذه الورقة .

ظل يضحك ويلعن الزوج المغفل الذى صدق النكتة .

وبعد أن انقشعت موجات ضحكه أحس بشىء قليل من الندم ، فقد أدرك أنه بطريقة أو بأخرى قد خدع ذلك الزوج وأنه قطعا مسئول إلى حد ما عن تلك الخديعة .

* * *

غير أنه بمرور الأيام تضاعف ضحكه وتضاعف تأنيبه لنفسه ، فقد تبين له أنه لم يضحك على زوج واحد فقط ولكنه خدع كثيرين ، فقد وجد إهداءات كثيرة مكتوبة على أوراق بنكنوت من ذوات العشرة والخمسة والخمسين ، وأحيانا المائة — ولم يعد يستطيع كتمان الأمر على زملائه فأطلعهم على الأوراق وحكى لهم القصة وهو لا يتمالك نفسه . وطبعا ضحك الزملاء كثيرا وتبادلوا الضربات على الأكتاف ، وقال أحدهم إن أعظم زوجة فى العالم لا تساوى قرش صاغ واحد فما بالك بعشرة أو بخمسة أو بخمسين جنيها .

وأصبحت المسألة مصدرا لا ينضب للضحك ، فما يكاد يرد إلى صلاح ورقة عليها إهداء حتى يشير بالورقة إلى زملائه من بعيد كأنما يقول : وآدى مغفل جديد .

ولكن عدد المغفلين كثير بشكل أفقد المسألة ما كانت تثيره من ضحكات ،

بل كثر بشكل أزعج صلاح نفسه .. لقد قرأ يوما إهداء وكان موجها من زوجة إلى زوجها .

وأصبح تأنيب الضمير على الخدعة التى ابتكرها لا يكفى ، أصبح لا بد من التفكير .. ما هى حكاية هؤلاء الناس ؟ وهل هى مجرد محاكاة لما فعله ، أم لا بد أن فى المسألة سرا خطيرا لا يدريه ؟

وكان عليه لكى يكشف السر — إن كان هناك سر — أن يجرب .. وبهرته الفكرة وأحس لها بحماس شديد .

* * *

كان يوم ١٠ مايو اقترب وعام جديد قد أضيف إلى عمر زواجه ، فلماذا لا يفعلها ويجرب ؟

أجل فليجربها فى عشرة جنيهات . ولكن تفكيره ما إن حوم حول الرقم حتى هبط حماسه فى التو . عشرة جنيهات ! إنها تكاد تبلغ ثلث مرتبه أو نصفه . إذا كان لا بد من التجربة فليجربها فى جنيه مثلا . ولكن أيصح أن يهدى إلى زوجته جنيها واحدا فى عيد زواجها ؟ المسألة حتى من الناحية الشكلية محرجة ، ولكنه إذا نظر إليها من الناحية الأخرى فإنه لا يمكنه أن يهدى إليها عشرة جنيهات مرة واحدة ، فهو لا يهدى إلى زوجته ، إنه يهدى إلى غريمه . فلتكن خمسة إذن — تكفى خمسة — إنها كافية جدا .

وهكذا جاء يوم ١٠ مايو وجاءت الساعة الثامنة منه ، وصلاح عائد إلى البيت وفى جيبه الورقة والإهداء على دائرتها البيضاء حبره لم يجف بعد ، وكل ما يحسه هو الفرحة لأنه مقبل فى حياة قاتلة من الملل على تجربة جديدة ، وحب استطلاعه يكاد يطل من عينيه إذ ترى ماذا ستفعل روحية ؟ وهل يغمى عليها ؟

* * *

وكالعادة فتح الباب وواجهه سوق روض الفرج المعتاد ، وبعد أن تم الغداء

والحساب والعتاب ناداها على حدة فى غرفة النوم ، ومع هذا أصر ابنه المتوسط على عدم مغادرة الحجرة ، وأمسك بروب أمه واستمات عليه . وظل صلاح يتعثر نصف ساعة فى كلمات لا معنى لها ، ثم أخرج الورقة ذات الخمسة الجنيهات ووضع الدائرة البيضاء أمام عينيها لترى الإهداء .

وبدت الصدمة واضحة على ملامحها وظلت واقفة فى مكانها لا تتحرك .. كان لسانها أول ما تحرك فيها ، وأول ما فعله اللسان أن فتح له محضرا طويلا عريضا . وراحت تسأله وتضيق عليه الخناق لتعرف من أين جاء بالخمسة الجنيهات وميزانيته كلها تعرفها بالمليم والصلدى . وقال لها إنه استلفها لتخصم على شهرين من مرتبه .. ومعنى هذا أن ينقص إيرادهم فى الشهرين القادمين .. وهكذا شبت النار ، وبعد لحظات قصار أصبح الحديث اتهامات متبادلة ، وشتائم وتهديدات ، وأيمانات مغلظة خرج على أثرها صلاح من الحجرة غاضبا لاعنا تاركا الجنيهات الخمسة تنعى من أهداها .

وجلس فى الصالة يغلى وينفخ .. لا فائدة على الإطلاق . إنها حرب لا هوادة فيها . إنه عسكرى فى جيش وليس زوجا فى بيت . إنه لا عمل له إلا الدفاع عن نفسه ، والحرب أذابته وهدته وأتت عليه . حتى العسكرى يحظى بهدنة وراحة أما هو فمعركته لا تتوقف .

وبينما هو يغلى وينفخ كان عقله يعمل ويحلم . أجل لا بد أن هناك حياة غير تلك ، حياة رحبة لا قتال فيها ولا خناق ولا ملل ، حياة مليئة بالبريق وبالرائع الجديد ولا ينقصها سوى الجرئ الذى ينهى حياته وجبنه وينطلق إليها .

وبوغت حقا حين رأى روحية قد خرجت من حجرة النوم ووقفت قبالته على بابها لا تتحرك ، والورقة فى يدها . ورمقها وهو يلعنها .. لابد أنها الآن اطمأنت أن الجنيهات الخمسة لم تضع وأنها على أية حال باقية فى البيت . ولكيلا

يلعنها فقد أصبح يضايقه حتى أن يلعنها .. حول وجهه عنها .

غير أنها سألته وهي واقفة من بعيد إن كان جادا حقا فى كلامه وإهدائه .. وطبعا زفر ولم يجب . ولكنها ظلت تلاحقه بالسؤال ، ولأنه يعرف أنها إن صممت على شيء فلا بد أن تعرفه ولو فرقعت مرارته وحطمت رأسه ، فلكى يخلص منها قال لها :

ـــ أيوه يا ستى هدية بحق وحقيق .. بمناسبة عيد الزفت الزواج .

وفوجئ حين وجدها تنخرط فجأة ! ـــ لا ليس فجأة ـــ فقد حدثت فى وجهها تغييرات متوالية مضحكة وانقباضات وانبساطات وتجعيدات ، ثم انخرطت فى بكاء ضاحك .. تضحك وتبكى وتبكى وتضحك ، وشعرها منكوش وروبها مفتوح ، والولد لا يغادر مكانه بين ساقيها .

وأخيرا قالت إنها قد أعدت له هدية هى الأخرى . إيه يا ستى ؟ وناولته الورقة وتحت إهدائه وجدها قد كتبت : إلى زوجى العزيز الغالى المحب بمناسبة قراننا .. من المخلصة جدا زوجتك .

وفرت الدموع فى الحال من عينيه . لا لأن ما كتبته كان غريبا ولكن لأنه صدر منها وبخطها . ما أروع كلماتها ! إلى زوجى العزيز الغالى . حتى أخطاءها الإملائية ، حتى إمضاءها ، حتى طريقتها الساذجة فى التعبير عن نفسها ، ولو كانت أجمل امرأة فى العالم هى التى كتبت له هذا لما بدا أروع من كلمات روحية ، روحية ذات الخرابيش والصوت الحاد اللافح ، إنه شيء لا يحتمل ، أبدا لا يحتمل .

وأخذها على كتفه وقبلها . واحمر وجهها جدا وهى تقبله .. ربما كانت هذه أولى قبلاتها له . وربت على كتفها وربتت على ظهره وبكيا ، وتعانقا وكما يضيء البرق فجأة تزاحمت الخواطر فى عقله . إن حياته معها كره فى كره وخلاف فى خلاف ومواقع إثر مواقع هذا صحيح .. ليلة أن صفعها مثلا وخربشته بأظافرها وتدشدش طقم الشاى ، ليلة أن اختلفا حول اسم تامر ، ليلة أن اصطدمت

بالمرحومة أمه ، ألف ليلة وليلة من الألم القاسى الممض .

العجيب أنه لا يحس شيئا من هذا الألم الآن ، وكأن الألم فى حينه يصبح ذكرى بعد حينه . فكل ما يحسه الآن أنه كان شابا وأنها كانت صغيرة وأنهما كانا طائشين . وما أعذب الطيش حين تمضى أيامه ويصبح مجرد لحظات تستعاد ! إن الخلاف ينفر ولكن العجيب أن خلافاتهما كانت تقربهما أكثر . والخلاف يقولون إنه يخرب البيوت والخلاف عمر بيته ، فقد كان لهما حجرة واحدة والآن عندهما ثلاث ، ولم يكن هناك أولاد والآن لهما أربعة ، حين تزوجها لم يكن معه إلا التوجيهية والآن معه بكالوريوس ، وهى تزوجته وهى مدللة لا تعرف سوى قلى البيض وتخطيط الحواجب والآن بشهادته أمهر خياطة وطباخة ، وكانت بالكاد لا تقرأ إلا « حواء » لتعرف الموضة وهى الآن تناقشه فى السياسة وتبزه تلك التى يعتبر نفسه ضليعا فيها .

ألف خاطر عنَّ له .. لو كان قد تزوج مطيعة لا ترفض له رغبة أو طلبا لما تحرك من مكانه وموضعه ولما تحركت هى الأخرى . إنه مغفل ! أيكون ما يعيش فيه هو سعادة الواقع وهو لا يدرى ؟ إنه كان يفكر دائما كأحد طرفى الخلاف ولكنه أبدا لم يفكر كزوج لا بد له زوجة ولا تتم سعادتهما إلا معا . ولا يسعد الشخصان معا إلا إذا اقتربا ، ولأنهما إنسانان وشخصيتان فإنهما إذا اقتربا احتكا واختلفا ونتج عن احتكاكهما موجات من الرضا والغضب والسخط والألفة والحب والكره .

أتكون هذه الموجات هى بنفسها السعادة التى طال سماعه عنها ؟

أتكون كالشرر لا يحدث إلا إذا طرق الحديد بالحديد والحجر بالحجر ؟

تلك المرأة التى يضمها بين يديه الآن ، رفيقة العمر التى صاحبته لحظة بلحظة وساعة بساعة ، لا بد أنها كانت تقاسى مثله ، وكانت تكرهه مثلما يكرهها ، وتحملته مثلما تحملها .. وكل ذلك قد مضى ويمضى ويصبح ذكريات أهم ما فيها أنها مرت وطعمها الآن من طعم العمر المولى ألذ وأطيب وأمتع طعم . إنها الآن

بين يديه ضعيفة مستسلمة قد أسعدتها هديته البسيطة إلى درجة البكاء والنشوة .

ألف خاطر وخاطر ، وعاطفة قوية مبهمة تتفجر فى نفسه ، وإعزاز غريب مفاجئ لروحية يكتشف أنه يملأ صدره . أيكون كل ما كان بينهما من خلاف وتعنت وكره هو الحب ؟ الحب الأكبر ؟ أكان من حمقه يحلم بالحياة السعيدة الأخرى والحياة الأخرى هو فيها ؟ ويفكر فى الهجرة إلى دنيا جديدة وهو يغمض عينيه عن دنيا الحقيقة الجديدة ؟ ويقول إن إنهاء حياته الخاملة تلك فى حاجة إلى شجاعة ، والشجاعة هى أن يتقبل حياته هذه ويؤمن أن روحية زوجته والأولاد والبيت بيته وهو دعامته والمسئول عنه ؟

ألف خاطر وخاطر ، وهما واقفان بين دهشة الأولاد متعانقان وكأنهما كانا غائبين لعشر سنوات مضت ، وكل هذا بغلطة ، بلفتة ، بنكتة ، بكلمات قليلة على ورقة .

* * *

ولم تكف أوراق البنكنوت ذات الإهداءات عن الورود لصلاح مكتوبة على أوراق من فئة العشرة والخمسة والجنيه والخمسين قرشا فى بعض الأحيان . وكلما قرأ صلاح الإهداء وتأمل اللحظة التى لا بد سبقته واللحظة التى أعقبته كانت سعادة غامرة تملأ جوانحه . وكأنه قد اخترع اختراعا للسعادة البشرية أو اكتشف اكتشافا . ولفرط سعادته باكتشافه حاول ذات يوم أن يبدأ فى عد الأوراق ذات الإهداءات ليعرف كم من السعادات تسبب فيها وأحدثها .

ولا يزال صلاح إلى الآن يعد ، ويبدو أنه لن يتوصل أبدا إلى معرفة الرقم الصحيح ، فالأوراق لم تكف أبدا عن الورود .

يناير ١٩٥٧

# فوق حدود العقل

دونت الاسم والسن والسكن مرتين وفى صفحتين متقابلتين كما تقضى التعليمات ، ولم يكن قد بقى سوى سؤال واحد أو سؤالين عن سلوك الشاب ، وأوقع وينتهى الأمر . ولكن الأمر فى ذلك اليوم لم ينته أبدا . إلى الآن وأنا لا أعرف ماذا حدث بالضبط وجعلنى أشك .. كانت وقفة الشاب عادية ، نفس الوقفة التى وقفها قبله كثيرون ، والتى أعرف أن كثيرين غيره سيقفونها .. نفس الوجه المنكس وكأنما ينظر إلى منتصف الكرة الأرضية ، نفس النظرة الذاهلة الباحثة عن لا شىء .

سألت بصوت ضجر ، وأذن متعبة ، وعقل كأن عليه أيضا أن يتلقى الكلمات الكثيرة وينقيها من الضجة ويترجمها إلى اصطلاحات يمليها علىّ قلمى المشرع ليسد بها الخانات ، وينتهى كل شىء .

سألت : ما الذى فعله ؟ وجاءتنى الإجابة .. قام فى الليل وأمسك بالسكين وحاول ذبح زوجته التى لم يدخل بها إلا من أسابيع ، وحين حاولوا منعه كاد يفتك بهم ، تغلبوا عليه وأخذوا السكين .. اتجه إلى النافذة يريد أن يلقى بنفسه منها فاضطروا حينئذ لتكتيفه وضربه ، والاستغاثة بشرطة النجدة .

وتوقف القلم وعدت أسأل : متى ؟

ـــ منذ بضع ليال .

وبدأ القلم يضيق بوقفته التى طالت دون أن يسد خانة ، وقلت أخيرا : ليس هذا بكاف .. هل تكررت أعماله هذه ؟ هل فعل شيئا آخر ؟

وجاءتنى الإجابة : يوهوه .. كتير .. يقوم فى الليل ويظل يصرخ ويوقظ الجيران ويتصور أشياء لا وجود لها .. يعتقد أن إخوته يتآمرون عليه ويريدون انتزاع أرضه التى ورثها عن أبيه ، وكثيرا ما يكلم الهواء على أنه الأب الذى مات من عام ويشكو له هذا الأخ أو ذاك .

«بارانويد شيزوفرينا» .. جنون الاضطهاد . هكذا خمنت وكتبت وأحكمت الحيثيات .. وآخر ما كان قد تبقى ليصدر حكمى بتحويل الشاب إلى مستشفى الأمراض العقلية ونقله من خانة العقلاء إلى خانة المجانين سؤال ، مجرد سؤال واحد ألقيه على « المتهم » بمرضه ، للتثبت من التشخيص لا أكثر ، ولكى يطمئن ضمير القاضى الذى فىّ :

ـــ صحيح كنت عايز تقتل مراتك ؟

ولم تأتنى إجابة ما ، وسألت مرة أخرى وجاءت نهنهة .. إجابة ليست غير متوقعة ، فما أكثر ما تأتى إجابة المجانين على هيئة بكاء .

ورفعت عينى وكأنما إيذان بانتهاء الجلسة . كان الوضع لم يتغير .. حجرة مفتش الصحة فى المكتب البالى الحافل بالازدحام والضجيج ، الباب نصف مفتوح يطل منه وجه التومرجى تزاحمه عشرات الوجوه ، والكنبة البلدى بملاءتها الدمور ، ولوحة كشف النظر ـــ التى حال لونها واصفر وأصبح بنيا ـــ بارزة من ركن الحجرة كعلم مرفوع بالتسليم والإذعان لوطأة الزمن .

وفى الوسط تماما كان الشاب نحيلا فى « قميص الكتاف » القذر الواسع ، مقيد اليدين بأكمام القميص الطويلة من الخلف ، وبجواره العسكرى المعهود . فلا بد مع كل مجنون يرسله القسم من عسكرى ، ولكنه هذه المرة طويل مهيب الطلعة أنيق البزة ، يصلح ليكون على رأس قره قول شرف .. أو ليتقدم موكب المحمل ..

تأملت المشهد برهة ثم قلت : خذوه :

قلتها وأنا حزين ، نفس الحزن الذى يراودنى لثانية فى كل مرة تخرج من فمى الكلمة ، حزنى على دنيانا التى فقدت عقلا وما أشد حاجتنا إلى كل عقل .

تكاسل الشاب قليلا ، ودفعه العسكرى بغلظة غير عادية ، واستعد التومرجى وفتح الباب ، وتراجعت الوجوه ، وكادت الحجرة تخلو .. لولا أنى تذكرت الخانة التى كنت أنسى ملئها دائما ، الخانة التى يقيد فيها اسم قريب المريض الذى أدلى بالمعلومات عنه وعنوانه ..

وقلت : استنى .. فين قرايبه ؟

وجأر صوت عيد التومرجى كالمبلغ فى صلاة الجمعة الذى يعيد كل ما يقوله الإمام :

ــ استنى .. فين قرايب المريض ؟

وسأل العسكرى :

ــ حضرتك عايز قرايبه مين ؟

قلت :

ــ قرايبه اللى كانوا بيقولولى على مرضه دلوقت .

ــ أنا اللى بقول لحضرتك .

ــ انت قريبه ؟

ــ أنا أخوه .

ــ أخوه ؟

مرة ثانية رحت أنظر إلى العسكرى وأخيه المريض ، ولا أكاد أصدق .

ــ انت أخوه صحيح ؟

ــ أنا ح اكدب يا دكتور الكرنيه أهه شوفه سيادتك .

فى الواقع لم أعد السؤال للتأكد ، أعدته فقط لأسكت إحساسا حقيقيا بالشفقة ، لا على المريض الذى يمرض فيه الشخص ويحس بآلام مرضه الآخرون . إن المجنون لا يتعذب .. العذاب يحل بأهله وأقربائه وذويه .. فهذا العسكرى تراه كم تألم وهو يستصحب أخاه إلى القسم مجنونا ، ثم وهو يمضى أوراقه من الرؤساء ، ثم وهو يقف أمامى يحكى بلسانه ما فعله ويدلل على جنونه وبعريه ، خاصة وهو لم يكن عسكريا عاديا إذ اكتشفت أن على ذراعه أشرطة أربعة كان واضحا أنه مهتم بها وبمركزه .. وقد صنعها من حرير أحمر أنيق .

ولكن إنسانيتى لم تستغرق سوى لحظة عدت بعدها أطمئن على الروتين .. فالمفروض ألا يرسل المريض مع أقربائه . لا بد من عسكرى يوفد لحراسته حتى لو كان قريبه ضابطا أو شاويشا .. الروتين هو الروتين .

وسألت :

— أين العسكرى ؟

ومن بين الوجوه الكثيرة المتزاحمة على الباب برز وجه ما لبث أن أصبح له جسد رسمى أسود وبندقية ، أعقبتها خبطة قدم وتحية ، ولم يكتمل الروتين إلا بتأنيبه وإلا باعتذاره أنه لم يكسر القاعدة وينتظر بالخارج إلا بناء على رجاء من الأخ الباشاويش .

— خلاص يا دكتور نمشى ؟

قالها الأخ مترددا محرجا وكأنما يستعجل مغادرة الحجرة وإنهاء الموقف . ولكنى لم أكن معه .. كنت أحدق فى الأخ المريض الذى بدأت ألحظ عليه أشياء .. كان فى وجهه ورقبته كدمات وآثار ضرب ، ورقبته بالذات كانت بها عضة واضحة اشتركت فى صنعها قواطع وأنياب ، ولم يكن قد كف عن البكاء .

ووجدت نفسى أسأله عما يبكيه وأنتظر إجابة من الإجابات المريضة المعتادة .. ولكنه ازداد بكاء ولم يجب . وأعدت السؤال وأيضا لم يجب . رفع رأسه وبجانب وجهه ألقى على أخيه الشاويش نظرة انفرطت على أثرها دموع كثيرة من عينيه بلا كلام .. ووجدت نفسى أنظر أنا الآخر إلى الشاويش .. ودهشت قليلا حين وجدته يصوب أشعة محمية من عينين واسعتين مبحلقتين وكأنما يأمر بها أخاه أن يكف عن البكاء ويكف عن النظر إليه .

ومرة أخرى وجدت نفسى أسأله عما يبكيه ، وهذه المرة أيضا لم يجب .. غير أنه بلمحة جانبية خاطفة ألقاها على أخيه سكت وعاد ينكس رأسه إلى الأرض .

وأحسست رغم الصمت المستتب أن الجو مشحون ... وأننى أنا الآخر بدأت أنتبه وأتفرس وأحاول أن أستخلص من الصمت سره .

وفجأة التفت المريض كلية إلى أخيه الشاويش وقال :

ــ خد الأرض يا أخى فى ستين داهية .. هات عقد البيع دلوقت وأنا أمضى لك عليه ، إنما بلاش تبهدلنى كده يا بدرى وأنا أخوك .

وكف عن البكاء ، وخفت أن يكون ما قاله مقدمة لنوبة وما أبشع نوبات مرضى الاضطهاد ! إنها النوبات التى يقتلون فيها ويعتدون ويصبحون كالوحوش الهائجة التى لا يوقفها خوف أو تهديد . خير ما تفعله أن تقتنع بكلامه وتجاريه ، وقلت :

ــ هوه عايز ياخد أرضك ؟

وبانفعال حقيقى كانفعال البشر العاديين وجدت كل ذرة من جسده تنتفض داخل قميص الكتاف ، وصدره يكاد يمزق القماش صاعدا هابطا لاهثا وهو يقول :

ــ ده يا بيه أخويا ابن أمى وأبويا ، وأبويا مات وساب لنا تسع قراريط واحنا

تلات أخوات .. بدرى دهه اللى بيشتغل شاويش وبياخد له ييجى عشرين جنيه من الحكومة ، وواحد تانى ، وأنا الصغير .. كل واحد منا نابه ثلاث قراريط ! ليه وليه إلا بدرى أخويا عايز ياخدهم منى عشان يبقى حداه ربع فدان ، بقى له ست أشهر وهو كل يوم يهددنى ويضربنى وآخرتها عايز يودينى السراية علشان يـ ـتولى عليهم . كده يا بدرى ؟ روح يا شيخ الله يسامحك !

كان بدرى قد هم أكثر من مرة أن يقاطع أخاه ، ولكنى بإشارات قاسية كنت أزجره وأرغمه على السكوت ، وما كاد أخوه ينتهى حتى انطلق كالبركان المتفجر يقول :

ــ بلاش فضايح يا محمد .. كفايه بقى الحتة كل يوم تتفرج علينا . جاى هنا كان عايز تفرج علينا الدكتور ؟

ثم التفت إلىّ كمن لا حيلة له قائلا :

ــ أهو زى ما انت شايف كده يا بيه .. كل ساعة على ده الحال لما أنا نفسى قربت اتجنن .

وسألته :

ــ إنما صحيح أبوكم فات لكم تسع قراريط ؟

ــ وحياة سعادتك ولا سهم .. حتى اسأل مراته . يا فرحانة .. يا فرحانة .. تعالى هنا ..

ودخلت فرحانة .. كالعروسة الحلاوة الملفوفة فى ملاءة من ورق سولوفان ، لا يخفى بقدر ما يظهر ويجمل ويجعل الريق يسيل .

ــ انت مراته ؟

ــ قسمتى يا بيه !

ــ هو صحيح بيعمل الحاجات اللى قال عليها أخوه ؟

قلت هذا وأنا أتفرس فيها وأعجب بيني وبين نفسي لزوجة يجن زوجها ويمرض ، وتذهب معه إلى مكتب الصحة بهذه الحواجب المرسومة والروج الموضوع بصبر وأناقة والبال الخالى .. الخالى حتى من نظرة تلقيها على الزوج المريض .

— يا بيه أنا فى عرضك .. دى مش مراتى .. دى مراته هوه .

هنا فقط التفتت إليه ودبت على صدرها بيد مثقلة بالغوايش والخواتم قائلة :

— هى حصلت يا محمد ؟ بقى مانتاش عارفنى كان ؟ إخص عليك .

— والله ماهى مراتى يا ناس .. مراتى حابسينها فى البيت وجايبين دى تعمل مراتى .. يا بدرى أنا ف عرضك إن كنت عايز الأرض خدها .. هات العقد وأنا أمضى لك عليه .

ولدهشتى وجدت بدرى يأخذ كلامه جدا ، ويلتفت إليه قائلا بعينين ناريتين :

— أرض إيه يابنى اللى آخدها ؟ ما ربك غانيها من غير أرض .. أنا بتاع كلام من ده .

وربما كلامه هو الذى شجع الزوجة ودفعها لأن تقول :

— أرض إيه يا محمد اسم الله عليك ؟ عقلك ياخويا أحسن من ستين أرض .. مش عيب تقول على أخوك كده ؟ ربنا يشفيك .

— يا بيه ده موتنى م الضرب ليلة امبارح .. أنا راجل كلوباتى على قد حالى وهوه شاويش فى البوليس ومخوف الحتة .. وعايز ياخد التلات قراريط بالقوة . ياخدهم ياخدهم .. بس بلاش تودينى السراية وأنا مضروب يا عالم وجسمى مكسر .. اتفضل شوف .

— والله يا بيه أنا ما ضربته ولا مديت إيدى عليه . ده حصل واحنا بنحوشه

وهو رافع السكينة على مراته دى .. ده طول الليل قاعد يهربد فى نفسه ومطلع عنينا معاه .. كده واللا لأ يا فرحانة ؟

وهزت فرحانة رأسها وبكت وأخرجت من صدرها منديلا صغيرا أبيض جففت به الدموع .

وبدأت الحجرة تمتلئ بالضباب .. أتفرس فى وجه الشاويش فأجده ضخم الجسد ناصع البدلة مدبب الملامح صاعق النظرات ، أشرطته الأربعة نافرة على كتفه تكاد تضيء بنور أحمر وهاج ، وبجواره أخوه الصغير ملفوفا كرطل العظم المشفى فى خرق بالية وقميص كتاف ، وبينهما فرحانة تبكى بحرقة وتندب حظا لا يعرف صاحبه .. والعيون كلها زائغة لا فرق بين عيون بدرى العاقل أو محمد المجنون ، والأعصاب مشدودة والحقيقة قد بدأت تضيع ، حتى من العسكرى الواقف يحرس هذا كله ويحمى القانون ومنى أنا صاحب أسوأ موقف ، الوحيد من بين الحاضرين جميعا الذى كان عليه أن يقرر فى دقيقة أو جزء منها أين يكمن الحق ، ويحكم بين أخوين لم يرهما إلا منذ دقائق وكل منهما يكذب الآخر ، ولابد أن أحدهما على الأقل كاذب والآخر إما مجرم أو مجنون . وبدأ شيء يبرز وسط الضباب .. ولم يكن شيئا ، كان رجلا ارتفع صوته بالخارج قائلا للتومرجى : اوع .. ثم ما لبث أن اقتحم الحجرة وانتصب قريبا من الأخوين على هيئة عسكرى آخر ضخم أيضا وطويل ، وعلى صدره كوردونات خضراء كتلك التى يرتديها حرس مجلس الأمة أو الوزراء لا أعرف ، وكان شاحب الوجه يلهث ، وقبل أن يلتقط أنفاسه بدأ يتكلم موجها كلامه للأخ الشاويش الأكبر قائلا :

ــ بقى كده يا بدرى عايز تعملها وتودى محمد السراية ؟ الله يلعن أبو الأرض . دول تلات قراريط يا بدرى تعمل فى أخوك كده عشانهم ؟

وقبل أن أسأله عمن يكون تطوع هو بتقديم نفسه قائلا إنه الأخ الثالث الأوسط ، وأنه علم منذ قليل أن بدرى قد استصحب محمد بالقوة ليدخله السراية ، فجاء يجرى ليمنع الجريمة .

وبكى وضايقنى بكاؤه ، وصرخت فيه ماذا يبكيه وهو الراجل الوافر القوة والقدرة ؟ وإذا به يقول :

ـــ ما يغركش يا بيه . أصل أنا أعصابى تعبانه شوية ، واتعالجت عند الدكتور ناشد فهمى المدرس بتاع الأمراض النفسانية فى الدمرداش .

قلت فى سرى : المسألة إذن وراثية ، وخيط الجنون يسرى فى العائلة . وسألت :

ـــ اتعالجت من إيه ؟

ـــ أصل حصل لى انهيار فى أعصابى .. أصلى قتلت مرة حرامى ومن يومها وأنا بدوخ ، وكل ما اشوف بندقية نفسى تغم عليه .

ولا بد أن روح الهزل هى التى تستبد بنا أحيانا ، فقد وجدت نفسى أنسى الموقف تماما ولا يعود يهمنى سوى حالة هذا الأخ الأوسط الذى بدأ يرتجف أمامى ويهتز ، وأكاد أضحك كلما قارنت بين جسده الضخم المهيب وصدره العريض الحافل بالكوردونات ، وبين ساقيه المرتعشتين والدموع السائلة من عينيه . ولم أكن قد رأيت قاتلا يعترف أنه قاتل من قبل ، بل لم أكن أتصور أن يحدث للعسكرى إذا قتل لصا كل هذا « الانهيار الأعصابى » .

وسألته وأجاب :

ـــ أصلى كنت عسكرى داورية ، وبعدين شفت حرامى بيكسر دكانة لما شافنى جرى ، ضربت طلقة فى رجليه أهوشه ما وقفش ، فضربت فى المليان قام جت الطلقة فى ضهره ومات . وفضلت واقف جنبه لما النهار طلع وخدونى

ع القسم .. وبعدين بقيت أهلوس فى الليل وما ارضاش أطلع دوريات ، قعدوا يجازونى وبعدين لما لقيوا ما فيش فايدة حولونى ع المستشفى وخدت ١٢ جلسة كهربا فى مخى على سنة ونصف .

وبدأ يمد يده فى جيبه ليخرج الروشتات وأوراق العلاج ، ولكننى لم أكن فى حاجة لأدلة أو إثبات ودهشتى الأولى كانت قد خفت قليلا ، وبدأت أعود إلى القضية المعلقة أمامى فى انتظار الحكم ، وطلبت من القادم الجديد رأيه فيها . وبدأ الأخ الأكبر بدرى يحتج ويقول :

ـــ يا دكتور ما تسمعش كلامه .. ده مهفوف ومضايق منى عشان أنا أغنى منه وما برضاش أديه فلوس . عايز يلبسنى تهمة يا دكتور .. هو ده معقول أدعى على أخويا إنه مجنون ؟

ـــ انت تعملها وتعمل أبوها ، دانت مجرم .. أقسم بالله إنك مجرم . يا بيه ..

والتفت الأوسط إلى شارحا كيف مات أبوهم وترك لهم القراريط التسعة ، وكيف أن أخاهم الأكبر هذا بخيل أنانى جشع يستولى على إيجار الأرض ويريد أن ينتزع ملكيتها ، وكيف أنه يضع المليم فوق المليم ويحرم نفسه ويقتات بالملح والفلفل حتى يجمع ثمن فدان ! وكم من مرة حلف بشاربه وبتربة أبيه أنه لن يرجع حتى يصبح مالكا لزمام فدان ، وكيف أنه استغل ضعفه وضعف أخيه الأصغر محمد ليفرض عليهما جبروته وسلطانه .

واحنا التلاتة عايشين فى بيت واحد ، كل واحد واخد أوضه هو ومراته وولاده ، ومحمد لسه مجوز جديد .. وبدرى ده محتل الصالة بالعافية ، ويبقى الفطار عنده ويسيبه ويبجى يقعد بالقوة يفطر مع واحد فينا عشان يوفر ، وما يهون عليه يشترى باكو شاى واللا بقرش سكر ، ولما يشم ان واحد فينا عمل شاى ييجى يستولى ع البراد بالرزالة .. وأخرتها عايز يودى محمد فى داهية عشان

يتعين وصى عليه ويلهف التلات قراريط .

ومرة أخرى بكى ، ونظر إلى أخيه محمد وهو يبكى فبكى محمد هو الآخر ، وتصاعدت من حنجرتيهما أصوات متحشرجة مختلطة بالدموع تعاتب بدرى وتدعو عليه وتطلب من الله أن يظهر الحق ويجازى كل ظالم على ما يرتكبه . أما بدرى فقد وقف زائغ النظرات يصرخ فيهما وينهر أخاه الأوسط ويعجب كيف يوجه له اتهاما كهذا .. القصد منه لا شك أن يحاكم ويفصل من وظيفته ، وهو يعلم تمام العلم أن أخاه مجنون وأنه على حق .. أما فرحانة فكانت قد انسحبت من الحجرة تاركة المشهد يحتله الإخوة الثلاثة ووراءهم يقف العسكرى الرسمى صامتا بليد الملامح ، وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يفقه مما يدور أمامه حرفا .

وهكذا وجدت يدى تمتد وتقطع الاستمارة ، ووجدت نفسى أعود مرة أخرى لفحص قوى محمد العقلية بنظرة محايدة جديدة ، ولدهشتى وجدت إجاباته كلها معقولة ، ولدهشتى الأشد لم أجد إجاباته تختلف كثيرا عن الإجابات التى بنيت عليها احتمال جنونه .. نفس الجمل تقريبا بنفس الألفاظ . كل الفرق أننى أسمعها بأذن محايدة .. إذ الظاهر أنه يكفى أن تفترض الجنون فى إنسان حتى تجد فى كل ما يقوله أو يهمس به أدلة تثبت جنونه ، ويكفى أن تفترض العقل فى إنسان حتى لو كان غير متمالك لقواه العقلية حتى تجد فى كلماته وإجاباته ما يدعم إيمانك بأنه عاقل .

واتضح أن حكاية القراريط الثلاثة صحيحة والتهديد صحيح ، والضرب والتعذيب قام بهما الأخ الأكبر فعلا ليرغم أخاه على بيع الأرض له بعقد صورى .

ليس هذا فقط ، بل بمكالمة تليفونية مع القسم اتضح أن القسم لا علم له بالورقة المحولة إلىّ ، وأنه هو الذى كتبها ووقعها واستصحب معه العسكرى

الذى كان لا يزال منتصبا فى مكانه .. لا يفقه حرفا مما يدور .

وحين عدت إلى مسرح الأحداث فى وسط الحجرة كان الأخ الأوسط يحتضن الأصغر وتتبادل عيونهما الدموع ، وبدرى الأكبر واقفا شاحب الوجه يدافع بآخر رمق عن نفسه ، وكلما تكشف الموقف عن دليل جديد ضده ازداد شحوبه ونبت على جلده العرق الصغير الأصفر .

وأمرت بفك القميص عن محمد وبدأت أتأمل الموقف بينى وبين نفسى لأعرف ماذا يجب علىّ أن أفعله إزاء بدرى ، وهل أحيله إلى النيابة أم أكتب بلاغا لمأمور القسم ليتصرف معه ؟. واستقر رأيى على إبلاغ القسم ، وبكل الحقد الذى بدأ يغلى فى صدرى على هذا الأخ المجرم أمسكت بالسماعة أريد أن أملى بنفسى الإشارة التى ستكلفه وظيفته وأشرطته الحريرية الأربعة والقراريط التى ورثها وزوجته الحلوة التى بدأت تولول فى الخارج وتعوى ، وأكثر من هذا حريته إذ بالتأكيد سيحكم عليه بالسجن ، ولن يقل سجنه عن أعوام .

وهنا وجدت المارد الضخم ينهار ، وهو الذى راح هذه المرة يبكى وقد جفت دموع أخويه ، ويستعطف ويتهاوى على الأرض يريد أن يقبل قدمى . وكلما رأيت هذا كله ازداد الحقد فى صدرى عليه .. ازداد إلى درجة رحت معها أهدهد على الأخوين بكلماتى وأذكر لهما أن أخاهما الآثم وقع فى الحفرة وأنه لن يخرج منها .

وصاح الأخ الأوسط : ينصر دينك يا شيخ .. يحيا العدل .

وقال الأصغر بصوت واهن : مش قلتلك يا بيه ؟

وقال بدرى فى هلع : أنا فى عرضك .. أنا صاحب عيال .

ثم التفت إلى أخويه قائلا : مبسوطين يا ولاد طلبه ؟ أهو بيتى اتخرب يا محمد ، يرضيكو كده يا ولاد طلبه يا ولاد الحرام ؟

وقال الأوسط : جزاك ما صح لك .

وقلت فى سرى : وكل هذا من أجل قراريط ثلاثة .

وفوجئت بالحجرة تتحول إلى مناحة .. بدرى يشهق بصوت عال ، والأخ الأوسط بدأ يضم الأصغر حتى بعد أن انتصر ويبكيان ، ولا ريب أن أباهم طلبة كان هو الآخر فى قبره يبكى ويتلوى .

وجاءنى من السماعة صوت أخنف مزعج يقول :

أيوه هنا القسم .. انت مين ؟

وأجبت : احنا مكتب الصحة .. خد الإشارة دى ..

وعلا بكاء بدرى إلى درجة غير معقولة ، بينما كف الأصغر عن البكاء وراح يتطلع إلى ثم إلى أخيه .. ثم وجدته يترك ذراع الأوسط الذى يضمه ويتقدم من المكتب ويرجونى بكل ما فى طاقته من ذلة ، أن أوافق وأحيله إلى المستشفى إن كان فى هذا إنقاذ لأخيه .

وسكتت الحجرة كلها .. ووقف بدرى جامدا فى مكانه كالمصعوق .

ثم وجدته يندفع إلى محمد يحاول عناقه ، ولكن محمد دفعه عنه قائلا :

— دا مش عشان خاطرك .. دا عشان خاطر أولادك .

— يا حبيبى يا محمد .. أنا عارف برضه إنى مااهونش عليك .

وفوجئت بالأوسط هو الآخر يتقدم ويرجونى إن لم يكن رجاء محمد صالحا للتنفيذ ، أن أستبدل الاسم الأول فى الخطاب والاستمارة ، وأن أضع اسمه بدلا منه ، وانهياره العصبى والعلاج الذى أخذه يؤهلانه لدخول المستشفى وإثبات أن بدرى على حق وأنه لم يزور ولم يكذب .

واحترت ماذا أفعل والسماعة بين يدى بدأت تنقنق وتقول :

— أيوه يا مكتب الصحة ..

وبدرى يقول : أنا أستاهل ودينى فى داهية ماترحمنيش .

والأصغر يقول : كل اللى قاله بدرى مضبوط ، أنا مجنون .

والأوسط يقول : ماتسمعش كلامه أنا بداله .

والسماعة معلقة فى يدى ينبعث منها الصوت الأخنف المزعج مستعجلا نص الإشارة ، وكأنه صوت القانون يطالب بتطبيقه وإبلاغ الإشارة وسجن الأخ .

ويا لها من لحظة تلك التى تحس فيها أن مصير إنسان معلق بكلمة تقولها ، أو زناد تضغطه .

لحظة خيل إلى أنها طالت وامتدت ، وأن المشهد نفسه طال وامتد وتجمد ، وأنه سيظل هكذا لن يتحرك أو تدب فيه الحياة إلا حين أفتح فمى وأنطق كلمة .

ولأمر ما أحسست أنى بدموع داخلية ـــ أبكى ، وأتذكر إخوتى وأحس أنى رابع الثلاثة الواقفين أمامى .

وصرفنى الشعور بأنى لا يجب أن أفعل كما فعل الأخ الأوسط وأضرب فى المليان ، وعن عمد قررت أن أنسى القانون وأخطئ ، وأنصت للهاتف فى داخلى وأسكت صوت السماعة ..

سنة ١٩٦١

# هـذه المـرة

كان الضابط كريما ، ولم يشأ أن تتم الزيارة فى الحجرة المخصصة للزوار المملوءة بضجة عشرين مسجونا يقابلون بلهفة مجنونة مائة أو أكثر من الأهل ، والجميع يصرخون فى وقت واحد عبر السلك الأصم المستمتع بصممه . لأمر ما جعلها الضابط زيارة خاصة تتم فى حجرته ، ربما لأن الزائرة كانت جميلة رقيقة ممشوقة القوام تضع على عينيها نظارة سوداء أنيقة وترتدى جوربا من النايلون الغامق . و« إمام » كان يعرف منذ الصباح الباكر أن له زيارة ولأربع ساعات طوال كان ينتظر ، والانتظار فى السجن ليس مؤلما ، إنه عمل .. طويل لا ينقطع ولا ينتهى يتسلمه المسجون لحظة أن يضع أقدامه فى العنبر ، إذ عليه من لحظتها ـــ حتى لو كان الحكم مؤبدا ـــ أن ينتظر لحظة الإفراج . وكل ما يفعله بين ساعة دخوله سجينا وساعة خروجه حرا طليقا أن ينتظر .. ينتظر الليل إذا جاء النهار ، وينتظر الغروب حين تشرق الشمس ، وينتظر وجبة العشاء المتواضعة أثناء توزيع الإفطار . انتظار يتكفل الزمن بتغيير طعمه ولونه حتى ليؤديه الإنسان بلا ملل ، وإنما باستسلام تام للانتظار وخضوع مطلق له .

منذ الصباح وهو ينتظر أن ينادى عليه الشاويش قائلا : « إمام محمد إبراهيم .. لك زيارة » ، أربع ساعات طوال وليس فى عقله إلا المفتاح حين يدور فى القفل ، أو صوت الشاويش الغليظ الهادئ الملول وهو يقول : زيارة .

أجل ستزوره سهير مرة أخرى .. وهى دائبة على زيارته منذ أن دخل السجن

لم تنقطع إلا مرة أو مرتين ، ولكنها دائبة ودود مستمرة ، كالإحساس الدافئ بالأمل . وهو فى كل شهر ينتظرها ولا يمضى الشهر إلا إذا جاءت . إذا تأخرت يوما أو أسبوعا توقف الشهر يوما أو أسبوعا ولا يتحرك ، ولا يبدأ شهر جديد إلا إذا جاءت .. إن ما بينهما ليس غراما مشبوبا ، فلقد كان يحبها ويحن إليها ويعشقها كما تعشق الليلات والجولييتات .. وهو حر ، ويرغب فيها أحيانا ويشتهيها كما تشتهى راقصة البطن حين تتلوى بإغراء مثير أمامك ، وأحيانا يزور عنها ويضيق مثلما يضيق معظم الناس بحياة الزواج . يحبها ويحب ابنته منها .. وابنتهما جزء من ذلك الحب كأنها التجسيد المادى لعواطف لا ترى ولا توزن .. ابنته كانت صحيحة حلوة ضاحكة متفتحة بضة وذات دلال ، تماما كما تتدلل أمها إلى درجة لا بد أن يتساءل الإنسان معها : ترى أهى صورة من أمها التى تحبه ويحبها أم هى صورة لما بينهما من حب ؟ والخوف أيضا كان هناك .. لقد انقضت ثلاث سنوات منذ أن كان معها فى فراش واحد ، ولقد رآها تضمحل ويسألها عن طعامها فتخبره أنها لا تجد لديها الرغبة فى أن تأكل أو حتى أن تحيا ، وكان فى مرات يُلحظ لونها أحمر على غير العادة كأنها تعانى من حمى ، ولا ينسى أبدا رعشة يدها ذات مرة ، ثم شفتيها ، ثم رعشتها كلها حين دلك كفها الممدودة إليه وهو يودعها ذات زيارة . أحيانا كان يواتيه خاطر مجنون يهيب به أن يأخذها هكذا أمام الملأ وداخل السجن وليطلقوا عليه النيران ، كان هو الآخر يعانى ليس فقط من جسده وإنما من كبت وجدانى كان الجسد وسيلته إلى تخليصه منه .. يعانى من إحساسه باختناق قدرته على إعطائها ، من حرمانه أن يمنح بسرف وبذخ كما تعود أن يكون عطاؤه ، كانا قد تزوجا عن إعجاب شديد تطور إلى غرام وغيرة ومحبة وتضحية كقصص الحب العاصفة ، وتكفل الزواج بصهرهما معا . لم يعد يحس بها منفصلة عنه ، أو كائنا آخر مستقلا .. لكنها أصبحت جزءا أنثويا منه

أو لكأنما أصبح جزءها المذكر .. إنها معه ، فيه ، داخله ، وهو يحس بنفسه هناك ، فى روحها ، فى أعماق نظرتها ، داخل كل انكماشة وانبساطة من ضلوعها الدقيقة وهى تأخذ الشهيق أو تصدر الزفير . إنه حتى يحس بنفسه داخل شعوره بها .. كل متلاحم كالكائن الحى لا يمكن فصله ، وأى فصل له أو انقسام لا يزيده إلا حياة وقوة واتصالا .

ودار المفتاح فى القفل ، ولم يسمع — رغم ترقبه له — ما نطق به الشاويش ، سار أمامه ، حليقا ، قضى وقتا طويلا يوصى المسجون الحلاق كى يجتث كل ناشز من شعره وينعم ذقنه . قام بمحاولات الدنيا كى يستحم بماء ساخن ويلقاها نظيف الجسد لامع الوجه ، كان كأنما هو ذاهب لملاقاة الحياة ، تلك التى يبقى ميتا طيلة الشهر حتى تشرق عليه فى النهاية وبنظرة واحدة منها تلمسه لمسة ترد إليه الحياة . حقيقة يحس بجسده يضطرب بتيار عارم متلاحق متشابك من الانفعالات والأحاسيس ، يحس بنفسه قد اتصل ببحر الحياة ، أصبح جزءا واعيا متفائلا من الوجود الميت الأحمق .

ودخل الحجرة ، وشكر الضابط بكلمات غير واعية وعيناه تبحثان عنها . كانت بجواره تماما ولم يرها .. لم يرها إلا حين سمعها تقول وكأنما تعبر عن الدهشة لنفسها : إمام ! التفت .. كانت هناك .. لم يتبين وجهها أول الأمر كعادته ، كان دائما يخاف كلما مرت بخياله فى وحدته أن يفقد القدرة على تذكر وجهها بكل دقائقه ، وفى كل مرة يراها كان يجدها متغيرة ، أبدا لم ير لها نفس الوجه مرتين . كل مرة يراها فيها سواء فى السجن أو خارج السجن كانت بوجه دائما جديد ومختلف وكأنه لم يره ، دائما متغير وكأنه لا يثبت على حال ، ولكنه ما يكاد يرى وجهها حتى يعرف ويدرك أنه وجهها ، وأنه هكذا كان يبدو وهكذا سيظل يبدو إلى آخر العمر ، وجهها .. الذى له ، يضحك ، ويعبس

بسببه ، ويحلم به ويشتاق ، ويشع حبها من خلاله . وكلما التقيا كانت تحدث هذه الالتماعة فى عينيها وعينيه ، حتى لكأن شرارة تحدث ، وضوءا مفاجئا ينسكب فيعشيهما معا .. لومضة ، ويحس أنها لا تراه بقدر ما تدرك وجوده ، وتحس كأنما عثرت على كنزها المنشود الذى ظلت تبحث عنه ولا تكاد نصدق أنها عثرت عليه ، ورغم هذا لا تطمئن أبدا إلى عثورها عليه .

ودون أن يشعرا اقتربا وتلاصقا ، كما يحدث دائما كل اقتراب لهما وتلاصق ، وأمسك بذراعيها فى قبضته ، ومن أول لمسة أحس بذلك الشيء الذى كان عليه أن يدركه حالا . وتأملها عن قرب .. كان لا يزال غير قادر على رؤيتها بدقة . وكأن الشرارة المغشية لا تزال هناك ، وكانت تبتسم ولكنه كان يحس أنها تبتسم لأنها تريد بإرادتها أن يراها مبتسمة وليس لأنها فى أعماقها تريد الابتسام .. ربما لو تركت نفسها لسجيتها لبكت أو لعانقته أو لاندفعت مقدمة على عمل أحمق . كانت ابتسامتها ربما علامة عجز .. عجز عن أن تصنع شيئا آخر ..وصدرت عنها الكلمات السريعة المتلاحقة التى تصدر عن كل الناس فى مواقف كتلك .. ازيك . صحتك .. وحشتنا . نوسة ، كلمات .. تحركات أفواه وتقلصات ألسنة وحناجر ليس إلا ، فالعقل مشغول بأشياء لا يمكن التعبير عنها بكلمات . العقل مشغول بعملية تفحص كاملة تامة ، كل يتفحص الآخر بأجهزة لا أسماء لها تقيس كل دقيقة فيه ليطمئن إلى أنه هو وأنه لم يتغير ، أو إن كان قد تغير فإنما إلى ارتباط أكثر وحب أقوى وتعلق لا حدود له . أجهزة دقيقة شاملة منتشرة فى كل اتجاه ، تستقبل وترسل وتمتص وتفرز .. كل خلية وكل عضو فى الجسد كأنما يريد الاطمئنان على الجزء المقابل له . كان يشتاق إليها بنفسه كلها ، بيديه وأنفه وشعره المجعد ، بشاربه الحليق ، بالحسنة السوداء فى أذنه . يشتاق إليها كلها للبحة فى آخر صوتها لرائها الغينية حين تنطقها ، لتغابيها عليه ، لتدليلها إياه ،

لهمهمة الغناء غير الجميلة حين تدندن بها فى ساعات التجلى ؛ لكل شىء حتى لإصبع قدمها الصغرى الخالية من أى ظفر .

وأحس بنفسه قلقا على غير العادة ، أطالت أجهزته التفحص والقياس والاستقبال وأكثرت من التجاوب والإعطاء ، لم تستقر على رأى بعد ربما لهذا ظل يردد .. إزيك .. صحتك .. اللذيذة نوسة وضرسها المؤلم الفاسد .. فى كل مرة كان عقله يستمر يردد هذه الكلمات إلى أن تكتفى أجهزة جسده وتعطيه إشارة خفيفة أنها انتهت . حينئذ كان العقل يبدأ عمله ويستطيع أن يعود يعقل وينظر ويتأمل ويدقق ، لتبدأ النظرة الثانية .. النظرة المتمهلة المتمعنة التى لا قلق فيها ، نظرة ما بعد القلق والعاصفة ومفاجأة اللقاء وذهوله ، حتى ولو كان موعد الزيارة معروفا فاللقاء دائما مفاجأة يطير لها الصواب .. نظرة المتعة بالرؤية والالتهام ، التهامها بالمزاج والراحة وأقصى درجات السعادة . إزاى نوسة ؟ رابع مرة فى دقيقة واحدة يسألها سؤالا أقرب للاستعجال منه إلى السؤال ، وليس استعجالا لها وإنما استعجال لنفسه اللاواعية أن تنتهى من إجراءاتها الكثيرة المعقدة وتؤوب إليه ليؤوب إليه اطمئنانه ووعيه . كويسة قوى ، مشتاقة لك . هى الأخرى تجيبه ناظرة فى عينيه شاخصة إليه كأنما تنتظر أن ترى فى عينيه شيئا ، إشارة أمان تعودت رؤيتها . جواز مرور ، نظرته هو . الحقيقة التى تعرفها حين ينظر بها إليها هى هى .. وتراه ينظر إليها هى دونا عن الكون والدنيا ، هى فقط التى تكون فى عينيه وكأن العينين تصبحان عينيها ، عينيها وحدها . عيناه وعيناها ، وبدأ القلق يدب ويهدد بأن يصبح توترا ولم يكن يريد أى توتر . كان يحلم منذ الصباح بأن تتوالى فى نعومة ويسر نظراته . الأولى المذهولة ، والثانية المستمتعة والثالثة حين تبلغ المتعة حد النشوة ، والرابعة الحالمة المكتسحة الخارجة به وبها من خلف الأبواب الموصدة إلى الدنيا المتسعة ، إلى الغد .. الغد الطويل

الممتد الذى لا نهاية واضحة له . أى تلكؤ حرمان ، وزمن الزيارة قليل ، وعقله من خوفه يساهم فى الإسراع ويكاد يقسم لأجهزته وحواسه الظاهرة والخفية أن كل شىء على ما يرام ، وأنها هى هى ، وجهها القمحى هو هو ، عيناها العسليتان الواسعتان ذواتا الحدقتين المكونتين من ألف لون ولون ، المشعتان بألف شعاع وشعاع ، شعرها الأسود اللامع أسود ولامع ، فورمته مختلفة ولكنه شعرها ، روحها هى نفس روحها أو تكاد ، لا خلاف يذكر أو يلحظ ، ولا يمكن أن يكون هناك خلاف . إن أى خلاف معناه اختلال فى نظام الكون لا بد . صحيح أنها معتنية بزينتها أكثر من كل مرة ، قلم الحواجب واضح خطه فى حواجبها ، والريميل يرمل أجفانها أكثر ، وإن كانت فسفوسة صغيرة لا بد من أثر الجو أو الهضم قد نبتت فى زاوية فمها إلا أن شفتيها هما شفتاها ، بروزهما إلى الأمام لم تتغير درجته والروج ينطبق تماما على حوافهما كما تحب أن تبدو ، لا شىء تغير .. بل ربما اللهفة أكثر ، وقلقها للعثور عليه فى عينيه وعلى نفسها داخله أكثر .

ولكن نفسه استمرت تتفحصها غير مبالية بقلقه أو استعجاله أو ضيقه ، مندهشة لا تزال ، غير مدركة تمام الإدراك ما ترى ، تتفحص ، بلا وعى تتفحص ، دون أن يشعر بها أو يسمح لها تتفحص ، كأنه يراها لأول مرة تتفحص .. ماذا هناك يا ترى ؟ ماذا يوقفها ويبقيها ؟ ماذا يدهشها ويذهلها ؟ ما المجهول فيها وهو يعرف كل لمحة منها وفيها ؟ لا أحد ، لا عقله ، ولا جهاز من أجهزته يرحمه ويجيب ، أو حتى يعرف ويدرك ولا يجيب . وكلمات الشوق والترحيب مستمرة ، عصبية ومن وراء القلب ولمجرد قول شىء مستمرة ، والحجرة تبدو أحيانا واسعة كفناء السجن ، وأحيانا تضيق لتصبح أضأل من الزنزانة ، والضابط جالس إلى مكتبه منجعص إلى الخلف بالجريدة مفتوحة

وبعين نصفها يقرأ ونصفها الآخر مضاف إليه انتباهه كله ، يراقب ما يدور بين الرجل والمرأة . لا يراقب محرمات أو مخالفات وإنما على الرغم منه ولمجرد حب الاستطلاع يراقب مراقبة لا يراها أى منهما ، ولكنهما يدركانها تمام الإدراك ويستعجلان اللحظة التى يندمجان فيها معا ويغيبان عن الوعى بالزمن والمكان وحتى بهذه الرقابة من الضابط .

لحظة طالت وامتدت حتى أصبح تآخرها أمرا واضحا لا شك فيه ، أمرا يدفع الموقف بكميات أكبر من القلق ، قلقه ، وقلقها على قلقه .. وقلقه حتى من قلقها عليه .

فجأة أفلت الزمام منه ووجد نفسه يسألها : إيه اللى حصل ؟

وكان بوسعها أن تسأله ماذا يقصد وعن أى شىء بالضبط يتحدث ، ولكنها مثله لا تريد للوقت أن يضيع وتخاف أن يضبطها فى لحظة تغاب . إن السؤال وإن كان يبدو مائعا عائما إلا أن الصوت الذى نطقه به كان محددا مستغيثا يطلب إجابة حاسمة تشفى الغليل . وبسرعة وبحسم قالت :

ــ لا شىء حدث .

ــ مالك ؟

ــ أنا ؟ ما ماليش .

ــ لا .. لازم فيه حاجة .

ــ حاجة إيه ؟ ولا حاجة .

ــ إنتى متغيرة .

ــ أنا ؟ متغيرة ازاى ؟

ــ لازم مش انتى .

ــ إزاى مش أنا ؟ أنا أنا .. كل مرة أنا أنا .

ــ إنما المرة دى إنتى مش انتى .

ــ أمال مين ؟ أنا مين ؟ أنا سهير بتاعتك مش فاكر ؟

ــ صحيح بتاعتى ؟

ــ ودى عايزة سؤال يا إمام ؟ بتاعتك بتاعتك بتاعتك .

ــ إنما برضه يا سهير لازم فيه حاجة .

ولاحظ ارتجافة عابرة جدا سرت بشفتيها لم يكن ليلحظها لولا فسفوسة عسر الهضم . وأمام الحاجز الذى أقيم بدأت العواطف تتجمع بسرعة وتتزايد وتتراكم وتهدد باكتساح السد الذى أقامه بلا سبب معقول أو غير معقول أو بصناعة مجرى جانبى آخر . وهكذا كان لا بد أن تأتى النظرة الثانية ، بحكم قانون القوة جاءت ووجدت وأصبحت أمرا واقعا ، ولكنها لم تأت كما تعودت أن تأتى كل مرة حين تحل محل النظرة الأولى الحيرى المتسائلة المذهولة ، جاءت النظرة الثانية هذه المرة دون أن تختفى الأولى أو تزول ، تراكمت فوقها . فوق الذهول والحيرة والتشتت . وأيضا لم تكن نظرة استمتاع والتهام متمهل سعيد منتش ، جاءت مختلفة غريبة ، مجرد رغبة أعظم فى بحث متعجل حاد ، لهفة ، إحساس دافق قوى بضرورة العثور على نهاية ، على قاع ، على حقيقة .

ــ فيه إيه يا إمام ؟

سؤال منزعج من فم منزعج ، والملامح التى أطلقها فيها رجفة .. لا بد رجفة اضطراب . لم يكن قد حدث ما يستدعى السؤال أو الانزعاج ، كما لم يكن قد حدث ما يستدعى سؤاله المفاجئ عما يمكن أن يكون قد حدث .. ولكن المشكلة أنه لم يكن مطلوبا أن يحدث شىء واضح ليسأل أحدهما الآخر أو ينزعج . إن الحياة معا فى حب أو زواج صنعت مثلما تصنع لكل الناس .. ذلك الالتحام الشامل الذى يجعلك تفهم الآخر وتحسه ربما قبل أن تفهم نفسك

أو تحسها ، تفاهم بالإحساس يتم بالتأكيد قبل أن يتم التفاهم بأى لغة أخرى حتى لو كانت لغة العين والنظر . إنه تشابك الأفرع والأغصان والأوراق وتداخلها فى شجرة إحساس واحد مسيطر ، حالة لا يزيدها البعد إلا حدة والحرمان إلا شحذا ومقدرة ، وكلما ازداد الطرفان بعدا ، اقتربا وأصبحا أكثر تشابكا .. فانفصال أيهما عن الآخر فى الزمن أو المسافة لا يبعد ولا يعزل ولكنه يقرب ويكثف ويربط ، فيه إيه ؟ أى نعم فيه إيه ؟.. وإيه بالضبط زى سؤالك حصل ؟ انطق .. تكلم .. فيه إيه ؟ أبدا ولا حاجه .. إذن لم يحدث شيء وليس هناك شيء ! ما الأمر إذن ؟ ماذا هناك ؟ ماذا دهاك ؟ ولو كان الوقت يسمح لاستمرت المطاردة الخالدة غير الجديدة على علاقتهما إلى ما لا نهاية .. ولكن الوقت كان مدببا كالترس المسنونة أسنانه . كلما دار وخز وآلم ونبه وجأر بأنه يدور ويمضى مهددا بقرب انغلاق دائرة الدقائق العشر المصرح بها .

ولكن ماذا يصنع أو يقول فى موقف لم يحدثه هو بإرادته ؟ فى موقف تكوم وتكون وتراكم وتشكل حقيقة واقعة دون أى تدخل إرادى أو عقلى أو حتى وجدانى منه ؟ إنما حدث هذا وكأنما حدث بواسطة جسده وأعضائه وعضلاته وعظامه والأجهزة اللاإرادية الغريبة المركبة فيه . فى موقف هو عاجز عن فهمه وإدراكه . موقف حدث لا يدرى كيف ، ومستمر فى حدوثه لا يدرى كيف أيضا ، وسادر فى استمراره إلى ما يبدو أنه اللاحل واللانهاية ، لا يدرى كيف أيضا .

— سهير يا حبيبتى أنت أنت لم يتغير فيك شيء ، أليس كذلك ؟

— بل تغيرت يا إمامى وأصبحت أحبك كما لم أحبك من قبل أو من بعد .

— ليتك تؤجلين الكلام عن الحب ، كل كلام عنه أحس به غير طبيعى .. ومصطنع من أجل هذا الموقف . إن الحب يأتى بعد الاطمئنان وأنا لا أزال

لم أطمئن ، نفسى التى تحركنى وتشعر لى لم تطمئن . عقلى لا يزال مذهولا يبحث عن خلجة اطمئنان ، ومنك يأتى اطمئنانى وفى يدك الحل إذ التفسير لا بد عندك . أنا أنا لم أتغير يا سهير . أنا كجدران الزنزانة ، كساعة « التمام » بعد الظهر ، كوقع الأحذية الثقيلة على بلاط العنبر . أنا مثل أى شىء وكل شىء هنا لا أتغير ولم أتغير . أنا ثابت وأنت المتحركة ، أنت الطليقة ، أنت المتغيرة .

— ولكن يا حبيبى برغم أنى طليقة ومتحركة .. برغم وجودى فى الخارج الحر أنا معك ثابتة لا أتغير . أنا هنا وإن كنت أبدو هناك .. أنا سجينة داخل ما هو أفظع من سجنك .. داخل الحياة الطليقة .

— كلام جميل مثل حوار أفلام الحب ولكنى لا أريده ، وإن كنت فى كل مرة أسمعه أجن إلا أنى لا أريده . هناك شىء مؤلم حاد يشتتنى ويجعلنى لا أريد أن أصغى قبل أن أوقن وأعرف .

— تعرف ماذا ؟

— أعرف من أنت ؟ إن فيك شيئا لا أعرفه يجعلنى أحس أنى لا أعرفك كلك . شىء جديد غريب على .. حواسى تحوم حوله وتجفل ولا تستطيع إدراكه . أراه ببصرى ولكنى لا أعيه . أيكون قد حدث شىء يا سهير ؟ أيكون ؟ أرجوك دعينى أعرفه .

— كيف ؟

— اعرفيه أنت واعترفى لنفسك به فأعرفه أنا .

وحوار غير منطوق أو مسموع أو حتى مار عبر العيون ، ولكنه رائح غاد فى سرعة وتحفز ككرات البنج بونج لا يستقر ولا يهدأ ، وإنما تزداد به النظرات جهلا واستيحاشا وتوترا ، ويزداد به الزمن وخزا وإيلاما .. لم يبق على انتهاء الزيارة سوى دقائق ثلاث أو أربع . سهير يا سهير .. أنت لى ، كلك لى ، حتى

ما فيك من خطأ لى . بحقك على وحقى عليك أخبرينى ماذا حدث ، إذ مهما كان ما حدث فهو فسفوسة يا سهير بالقياس إلى حياتنا ، فسفوسة لا أعرف لها مكانا ولا اسما ، أحس بها تافهة سطحية تكفى ضغطة صغيرة لتنمحى وتتلاشى ، كل ما يضخمها .. كا ما يعرقلنى عنك .. أنها غريبة عليك .

— انت شايف إيه ؟

— مش عارف .

— عايز تقول إيه ؟

— مش عارف .

— شاكك فى إيه ؟

— مش عارف .

— أمال فيه إيه ؟

— مش عارف .. أنا خايف .

— من إيه ؟ على .. ماتخافش .

— ده كلام يمكن من قدامى بس .

— قدامك ومن وراك .

— أمال أنا حاسس بيكى متغيرة ليه ؟

— يمكن إحساس خاطئ .

— وهو عمر إحساس اللى بيحب بيخطئ .. أبدا أبدا يا سهير .. عمر إحساسى بك ما أخطأ .. عقلى بيغلط إنما إحساسى لا .. وده هو اللى تاعبنى .

— انت بس اللى عاوز تتعب نفسك .

— وحد بيعوز يتعب نفسه ؟

— أيوه ، لما يكون مسجون وبعيد .. وبيحب .. يخاف على حبيبته

أو مراته ، فيشك ويخاف ويتعب نفسه .

ــ ده كلام معقول . إنما أنا اللى حاسه حاجة فوق العقل .. حاجة قبل العقل .. حاجة أصدق وأعمق من العقل .

ــ اسمح لى دى قلة عقل .

ولكنها قالتها بروح لا مرح فيها ولا رغبة فى المداعبة وهذا ما أحزنه ، لو قالتها كنكتة لبدت طبيعية وربما حلت الموقف كله ، ولكنها أخذتها جدا .. وأردفت :

ــ اشمعنى المرة دى يعنى ؟

ــ ده بالضبط اللى بقوله لنفسى ، كل مرة تيجى تزورينى هنا ، اشمعنى المرة دى ؟

ــ أيوه اشمعنى المرة دى ؟

ــ لأن لازم حصل فيه حاجة يا سهير .. أنا حاسس .

والكارثة فى هذا الإحساس الذى لا يناقش كالحكم الذى لا نقض له ولا راد كالأمر الواقع ، إحساس غير خاضع لمنطق أو فكر ولكن له قوة أعتى من قوة المنطق والفكر . للمرة المائة يتأمل وجهها ، إنه هو الآخر أمر واقع ربما ينجح فى دحض إحساسه ونسفه ، ولكن حتى وجهها تكفلت المنطقة الغريبة المجهولة بالزحف عليه والامتزاج بلونه وملامحه وتغيير لونه كما يتغير لون الماء إذا سقطت فيه نقطة حبر .

ومالت على أذنه مرة وهمست له بكلمة أعقبتها بضحكة عالية جعلت الضابط يرهف أذنه ويكاد يمدها لتتسقط ما بين فمها ومسامعه ويعرف سبب الهمسة والضحكة . أما هو فلم يهضم لا الهمسة ولا الضحكة . الضحكة فى مظهرها بريئة قريبة منه تبدو كنفس ضحكتها البريئة ، ولكنها البراءة وقد زحف عليها

ذلك الشيء الغريب المجهول فأحالها إلى ما يشبه التهتك والرقاعة .. إن رأسه يكاد ينفجر . لم يعد باستطاعته أن ينظر إليها أو يشعر بها كما تعود أن ينظر أو يشعر ، فى غيبة عقله كما لا بد فى غيبته حدث شيء . شيء غامض محير مجهول ! لو كان طليقا لظل وراءه يبحث ويستقصى حتى يدركه ، ولكنه هنا مقيد محبوس . وظيفته الأولى أن يبقى جاهلا بمعزل عن كل ما يمكن أو بالاستطاعة معرفته .. إنه هنا فقط يسجل .. يسجل حتى دون أن يشعر ، وقد سجل ما فيها من غربة . ولينفجر عقله فى محاولة التفسير أو التبرير فإحساسه لن ينفعه ، سيغادره تاركا إياه وحده التصرف . إنه الجحيم حتما ، بل ربما الجحيم أرحم ، إنه السجن .

صيف ١٩٦٤

# لـغة الآى آى

لم تكن بالضبط صرخة ولكنها كانت الأولى .. بعد منتصف الليل بقليل تصاعدت غير آدمية بالمرة . حتى الحيوان ممكن إدراك كنه صوته ، ولكنها بدت لأول وهلة جمادية ذات صليل كعظام تتكسر وتتهشم ، تمسكها يدا عملاق خرافى القوة وبنية صارمة لا رحمة فيها تدشدشها .. فجأة وفى المنزل الهادئ المظلم الفاخر الإظلام السابح فى سكون مسود تلمع فيه حواف الموبيليا الأنيقة الموزعة بعناية وذوق .. بيت ساكن ناعم يرفل فى رائحته الليلية الخاصة التى تميزه عن أى بيت ، وفى الحى المترف الذى تتثاءب نوافذه وأضواؤه واحدة وراء الأخرى ، ويؤوب إلى الرقاد على ضجة المدينة ووسطها المستيقظ كغمغمة غارق فى الأحلام .

وفى وسط هذا كله ، ومن مكان لا تستطيع تحديده أو تعرف إن كان يمت حتى إلى الحى ، تصاعد ذلك الشىء الغريب الغامض الأول ــ مفاجئا وكالطعنة الملتاثة ــ حافلا بأنين التمزق وكأنه صادر من حنجرة تتمزق أحبالها الصوتية لتصدر الصوت ويكاد يمزق طبلة أى أذن يقع عليها .

ودونا عن سكان الحى والبيت بدا وكأنه الكائن الوحيد الذى سمعه . كان مغمض العينين لا يزال بينه وبين النوم مشكلة لا بد لها من حل ، ومر الصوت مفاجئا غير مألوف من الصعب تبينه ، ولكن جسده فى اللحظة التالية كان يقشعر بخوف طفلى مذعور ــ وإن لم يستغرق زمنا ــ أسلمه إلى عينين مفتوحتين

لآخرهما ، وقلق وعاصفة من الاضطراب . فالإحساس التالى الذى واتاه كان إحساسا بالذنب . شعور غامض يربطه بالصوت ويؤكد أن الصلة بينهما من صنعه ومسئوليته ، وأن عليه وحده يقع التحمل للنهاية .. وبالغريزة التفت .. كانت زوجته لا تزال على وضعها ، فقط فى اللحظة التى التفتت فيها ماءت مواء طال بعض الشيء ، ثم بإرادة نائمة انتقلت إلى جنبها الأيسر وقربت ساقيها ، ربما كان هذا هو الأثر الوحيد الذى أحدثه الصوت فى جسده المستسلم لأول مراحل النوم . وارتاح واطمأن بعض الشيء وهو يواجه الأمر وحده ، فقد كان ظهورها على المسرح لحظتها كفيلا بزيادة ارتباكه .

ما هذا الصوت ومن أين جاء ؟

فى لحظة مر بخياله ألف احتمال إلا الاحتمال الوحيد الذى كان يخاف مروره . لم يكن قد تغير فى البيت أو فى الحى أو فى دنياه كلها شيء ما عدا ذلك الشيء الواحد الذى اغتم له .. ولا بد أن يكون الصوت الجديد من صنع القادم الجديد حتى ولو نفى عقله بشدة وأبى أن يصدق .

ولم يشأ أن يفكر أكثر ، مجرد صوت وحدث .. المهم ألا يعود يحدث . ومر بعض الوقت أحال اللحظة إلى دقيقة أو دقائق ، ولا شيء يتغير داخل الليل الساكن ، والأمل يقوى ..

ولكن وشوشة غامضة جدثت اندفع منها إلى أعلى فجأة صوت كالطوفان الهادر العمودى له وقع العظام نفسها وهى تسحق وتتدشدش .. صوت أقرب إلى رعد تنفثه السماء فى ماسورة مكتومة ما لبثت أن فتحت.وسلكت فى استغاثة راعدة مولولة ممدودة ، يخاف صاحبها أن ينهيها وكأنما الموت عند نهايتها .

انتهى الأمر .. لم تعد هناك فائدة .

كان هذا الصوت الثانى مزعجا حقا ، حتى إنه مع علمه هذه المرة وتأكده من مصادره لم يستطع كبح جماح ارتجافته ، ليس خوفا منه وإنما من الشيء المجهول المروع الذى يختفى لا بد وراءه ويحدثه .. مزعجا ومحيرا إلى درجة لم يلحظ معها أن رفيقة الفراش قد اعتدلت نصف اعتدالة والتفتت إليه قائلة بهستيريا مفاجئة :

— إيه ده ؟ قول لى بسرعة وحياتك إيه ده ! وحياتك بسرعة بسرعة بسرعة .

وقبل أن يفكر فيما يقول انخلعت عنه ناظرة إليه بشك متوحش :

— أوع يكون هوه ؟

وقبل أن يفتح فمه أردفت :

— أنا مش قلت ؟ أنا مش قلت ؟ اتفضل بقى ! اتفضل بقى ؟ أنا مش قلت ؟

وحقيقة لقد قالت وعارضت ، وكل ما حدث كان رغم قولها وإرادتها . وبالتأكيد هى الآن بسبيلها إلى إعادة ما قالته ، وعليه أن يتذرع بالصبر ويقول لها كلاما مطمئنا كثيرا .. إنها مجرد آهة .. آهة ستمر ويعود كل شيء إلى سابق عهده .

أكان معقولا أن يعود أى شيء ليلتها إلى سابق عهده ؟ الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها .

وما فائدة الكلام ؟ والكلام الذى دار كثيرا ، وقد كان ممكنا ما دام الوضع هكذا .. زوجة حلوة قوامها كقوام المانيكان ، وساقاها حتى فى الظلام يظهران من قميص النوم فى إغراء لا جمهور له ، وحتى هناك تواليت وماكياج للنوم ، وعناية خاصة بالشعر ، ودهان مخصوص للبشرة ، وزوج هناك دائما بينه وبين

لحظة النوم مشاكل لا بد لها من حل ، زوج امتلأت روحه بالتجاعيد مثلما فقد رأسه الكثير من الشعر وفقدت عيناه القدرة على الرؤية .. ما دام الوضع هكذا فقد كان ممكنا أن يدور الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها حول أى موضوع — كالعادة — لا تلتقى عنده وجهات النظر . المهم إنهما أصبحا بشىء من التحدى ينتظران الصرخة الثالثة التى لن تجىء كما يؤكد الزوج ، والتى لا بد أن تأتى كما تصرح الزوجة . ومن المطبخ هذه المرة كان المصدر واضحا ولا شك فى أمره .. انطلق مواء كمواء القطط يحاول صاحبه كبته وخنقه فيخرج مضغوطا ثاقبا إراداته ، فيبدو كما لو كان رجل قد قرر بجماع ما يمتلكه من قوة وبسبب إصرار أن يتأوه كما يريد ، ولتقم القيامة بعدها . انطلق صفير معذب متألم متظلم باك غاضب كافر مستغيث بائس مؤمل زاهد .. آى ، آى ، آى ، آى طويلة وقصيرة ، ممدودة ومبتورة ، عالية بكل قواه يرفعها ، منخفضة بجماع إرادته يخسفها ، مجروحة دامية ، لاسعة كنار فى العين ، كاوية كصبغة اليود فى الحلق .. حارقة كآثار الحامض المركز .

فتحت الزوجة فمها تصرخ فى هوس من تأكد قولها ، وانتظرت أن تنتهى الصرخة لتطلق صرختها هى . ولكن انتظارها طال وبدأت رغما عنها تسمع ، ومن الذهول استمر فمها مفتوحا وأذناها بأمر قوة قاهرة تصغيان . ثم بدأت ترتجف وتقترب من زوجها وتمسك بيده لتوقف الرجفة ، وفى نفس اللحظة التى كانت قد قررت فيها أن تطلق لفزعها العنان وتستغيث صارخة انتهت الصرخة فجأة ، وكأنما انكسر الجهاز الذى يصدرها .

وكان الصمت الذى حلّ تاما ساحرا كالدواء الشافى المعجز .. لو لم يحلّ — وفى اللحظة التى حلّ فيها وعلى تلك الصورة الكاملة — لفقد أحد أو الجميع

عقولهم .

قالت الزوجة بعد جرعة صمت سخية :

ـــ كده يا حديدى .. كده ؟

وأجاب بهمس مناه ألا يصدر :

ـــ أرجوك يا عفت .. أرجوك .

ولكنها لم تستجب وبفحيح أكثر انخفاضا وإلحاحا سألته :

ـــ بس أنا عايزة اعرف .. أرجوك انت .. أنا ح اجنن عايزه أعرف .. ماوديتوش فى لوكاندة ليه ؟ ماسبتوش يتحرق مع أهله ليه ؟ عملت كده ليه ؟ أرجوك قوللى بس .. عشان مااجننش .

كيف يخبرها وهو نفسه لا يدرى لماذا أقدم على ما أقدم عليه . كان قد اتخذ قراره من زمن وكف تماما عن مساعدة أهل « زينين » وتوظيفهم والتدخل لقضاء مصالحهم . إن أهل بلده هؤلاء لا يكاد يبرز من بينهم واحد حتى يتسابقوا إلى جذبه إلى أسفل وإغراقه فى حل مشاكلهم .. مشاكل لو تفرغ لها لاحتاج لأضعاف عمره ، فلا يوجد إنسان إلا وله مشكلة حادة ملحة تطلب الحل وتستحثه .. ومائة ألف نسمة فى زنين وما حولها بمائة ألف مشكلة . بقرار جاسم باتر منه أن تبقى له حياته الخاصة ومشاريعه وطموحه ، وأن ينفض عن نفسه هذه الأيدى الكثيرة التى تريد إنزاله وجره إلى حيث هم ، وكأنما لا يطيقون رؤية البارز العالى ولا يستريحون حتى يبرك مثلهم ويعجز .

ولكن السكرتير جاءه قرب الظهر قائلا إن أبا فهمى وعمه بالخارج وأنهما يريدان رؤيته . وحياته ليس فيها إلا فهمى واحد ، أول وربما آخر طفل أو إنسان يعترف الحديدى لنفسه أنه أذكى منه . كان فهمى إذا وقف ليجيب ـــ وقد عجز

الفصل عن الإجابة ــ التفت الحديدى بكليته ناحيته يتأمل ملامحه الشاحبة ووجهه المليء بالعظام الناتئة ، والذى تكسوه مع هذا غلالة من مهابة خفيفة .. مهابة التفوق أو العبقرية . وكل كلمة ينطقها كان يتأملها وتبهره حتى الطريقة التى ينطقها بها . فكل كلمة كانت الصواب بعينه .. كل كلمة بالضبط هى ما يجب أن يقال وما يعجز الجميع عن قوله . فهمى كان يقولها ببساطة ودون أى جهد فى ذلك الفصل من المدرسة الإلزامية ذى الجدران المتساقطة الطلاء الكاشفة عن الطين الذى بنيت به الحيطان .. الفصل ذى السبورة الكالحة البالغة الصغر وكأنما هى سبورة خاصة لتلميذ واحد ، المزدحم بعشرات الطواقى الصوف والبيضاء القطن وأحذية الإخوة الكبار ــ أو ربما الآباء ــ والقباقيب والحقائب القماشية التى صنعتها كل أم لابنها أو خيطت على المكنة فوق البيعة مع الجلابية . الأيام الأولى التى كان الحديدى يتعرف فيها على مدخل العالم المقروء المكتوب ويحاول أن يحذق مبادئ أسراره ، وفهمى رفيق الأيام ومثلها الأعلى .. أيكون أهله هم من ينتظرونه بالخارج ؟

وأمر بدخولهم .

ومن باب الحجرة دخل ثلاثة أو أربعة أناس من حجم قصير تخين واحد ورابعهم مثنى على نفسه لسبب مجهول . أجال بصره فيهم .. إن ملامح فهمى محفورة فى ذاكرته لا تمحى أو تموت .. وأجال بصره محاولا أن يعثر على من يصلح ليكون أبا لفهمى أو عمه ولكن ملامحهم بدت غريبة حتى على أهل زينين بشكل عام .

ــ أمال فين فهمى ؟

وتسابقوا فى ارتباك عظيم يجيبون ، وينتهون إلى الإجماع على الإشارة

للشخص الرابع المثنى على نفسه .

— ده ؟

— أيوه يا بيه .

— انت ؟

— أيوه يا بيه .. هو .

— أيوه .. يا ..

ورفع رأسه يواجهه رغم بقائه مثنيا ، وحدق الحديدى طويلا فيه كمن يفتش فى كومة من قش قديم عن إبرة ملامح لطفل صديق كان أعز عليه من نفسه .

— أنت فهمى ؟

— أيوه .. يا .. فاندى .

جاءه الجواب من وجه كالمومياء الخارجة لتوها من القبر أو المستعدة توا للدخول فيه ، وجه منقبض بالألم وكأنما ثبتت ملامحه عنده وحنطت عليه .

— أنت فهمى أبو ..

— أيوه .. أبو عنزة يا بيه .. ده كان معاك فى المدرسة .. بس حضرتك مش فاكر .

أمعقول هذا ؟ من الطفل المرتب النظيف الذى تحيط بوجهه مهابة النبوغ ، ومن العينين اللتين يطل منهما الذكاء النفاذ والقدرة المعجزة على الإدراك ، أين هذا من ذلك الرجل الذى يبدو عجوزا محطما تجاوز الخمسين ؟ المظلم القسمات كالأرض البور ؟ المطفأ العينين لضيقهما كشريط اللمبة حين يحمر من تلقاء نفسه ويقصر ويحترق لدى فراغ الكيروسين ؟

وأحس بفجيعة ذات طعم خاص . كان دائما متأكدا أنه سيلقى فهمى يوما

ما ، وكان يعد العدة لهذا اللقاء الحافل . إن قدرا كبيرا من الرهبة التى يحسها لفهمى مبعثه أنه كان يتخيل دائما أن فهمى سيظل متفوقا عليه وعلى الآخرين ، وأن الذى باستطاعته أن يتفوق كطفل لا بد باستطاعته أن يتفوق كشاب ثم كرجل . ولم يكن أبدا يتصور أن اللقاء سيتم على هذه الصورة ، وأن الطفل الذى فى ذاكرته سيتمخض عن هذا الرجل . كان يدخر للحظة التى يقابله فيها كلاما كثيرا يريد قوله ، وكيف أنه إذا كان قد أصبح الأستاذ الدكتور الحديدى أكبر مرجع فى الكيمياء العضوية فى الشرق ، وإذا كان قد أصبح رئيس مجلس إدارة مؤسسة كبرى ومرشحا أكثر من مرة للوزارة وعضوا فى عشرات اللجان والهيئات العلمية فى الشرق والغرب ، فجزء كبير من هذا الفضل يرجع لفهمى ، فقد كان الصوت الذى ظل لأكثر من ثلاثين عاما من الزمان يلهب طموحه ويدفعه للتفوق حتى ينتصر — ولو مرة واحدة — على الطفل العبقرى الذى ظل يحافظ عليه فى ذاكرته كصور القديسين التى لا تمس . وها هو اللقاء ! وها هو القديس !

— انت فهمى أبو عنزة ؟

— أيوه يا بيه .

— فاكر العنزة ؟

— عنزة إيه يا بيه ؟

العنزة التى سرقها ليشترى لحسين أبو محمود والد منصور الألدغ حقن الدواء ٦٠٦ التى قيل إنها بخمسين قرشا وإنها دواؤه الوحيد . فقد كان فهمى شهما أيضا لا يتردد فى الذهاب سائرا على قدميه إلى البندر ، أو بقاء الليل بطوله ساهرا ، أو اليوم كله عاملا كادحا ، إذا أحس أن غيره فى حاجة إلى هذا العمل

أو الجهد ، خصال جعلت الجميع بدهشون ويفجعون لإقدامه على سرقة العنزة وإن كان السبب قد عرف والعمل قد اغتفر إلا أنه خرج منها بالاسم لاصقا به ملغيا اسمه الحقيقى وحالا محله .

ـــ أهلا وسهلا .. أية خدمة ؟

بالطبع فلا بد قد جاءوا مثلما كان يجيئه المئات فى انتظار أن يحقق لهم بنفوذه ومركزه المعجزة . كان سهلا تخمين المطلوب هذه المرة ، فلا بد أن فهمى مريض ولا بد أنهم يريدون إدخاله المستشفى .

وحاول أن يتحدث إليه ويسأله عن مرضه ، ولكنه ظل متنيا على نفسه فى جلسته لا يرفع رأسه ولا يبدو عليه أنه يسمع ما يقال .. وتهته أبوه وعمه وهم يعتذرون عن صمته وكيف أنه دائم الحدوث ، بل أحيانا تمضى عليه أيام كثيرة دون أن ينطق فيها بحرف ، ولم يكن المرض فى عقله أو نفسه وإنما كان فى مثانته .. فهم منهم أنها لا بد بلهارسيا أدت إلى سرطان فى المثانة ، وأنهم لفوا وتعبوا على جميع « حكما » المركز ومستوصفاته ومستشفياته وحلاّق صحته والعرب الذين يكوون بالنار ، « ويخرمون » بالمسلة ، حتى قالوا لهم فى مستشفى المحافظة فى النهاية أن لا فائدة من العملية وأنه بحاجة إلى علاج بالأشعة فى مصر . وأدحنا جينالك يا بيه ربنا يخلى لك أولادك ويمتعك بالصحة .

ومن غير دعاء كان قد قرر أن يتكفل بالأمر . إن الدين الذى فى عنقه للكتلة البشرية المنكفئة على نفسها أمامه ملفوفة بالملابس المهرأة كبير ، ولقد حان أوان رده وإيفائه .

كانت المشكلة أن يتخلص أولا من « الجماعة » التى ترافقه ويستصحبه إلى بيته ليقضى فيه الليلة ، وفى الصباح واعتمادا على صديقه أستاذ الأشعة يدخله

المستشفى . فقط كان عليه أن يدبر أمر ذهابه إلى البيت بطريقة لا تجرح ذكراه فى نفسه من ناحية ، ولا يظن معها من ناحية أخرى بواب أو ساع أنه أخ له أو قريب . وكان عليه أن يتغلب على معارضة « عفت » زوجته التى لا بد سترفض إيواء شخص مثله ولو ليلة واحدة ، ولو لكى ينام فى المطبخ أو فى فراش السفرجى .

ولقد تم كل شىء كما قدر له الحديدى ، إلا معارضة الزوجة — التى بقيت حتى بعد رضائها بوجوده فى البيت وأمرها للسفرجى أن يتكفل به وبحراسته وإطعامه . وهكذا لكى يقلل من وقت وجودها بالشقة اقترح أن يذهبا إلى المسرح ، وحين عادا فى منتصف الليل كان الهدوء المعتاد يخيم على البيت وكل شىء فيه هادئ ، ونور المطبخ مطفأ . وبعد نصف ساعة كانت عفت تستمتع بمراحل نومها الأولى ، وكان الحديدى مغمض العينين لا تزال بينه وبين النوم مشكلة مجلس الإدارة الذى أجلت حكاية فهمى من اجتماعه ، ومن المشهد العاصف الذى كان قد أعده لكى يسحب فيه البساط من تحت أقدام المدير العام ويجبره .. إما على الظهور بمظهر الغبى الأحمق الجاهل وإما — حفظا لماء الوجه — على الاستقالة .

حين جاءت الصرخة الأولى .

وأعقبتها الثانية والثالثة .

وتكهرب جو البيت تماما . أيكون قد تورط فى خطأ أكبر دون أن يدرى وظن أنه يأوى قطعة حديد خردة عزيزة لتأخذ طريقها فى الصباح إلى الورشة فإذا بها بدأت تنفجر وتوشك أن تهدم البيت !

وعلى عجل أسرع إلى المطبخ حافى القدمين . كان مظلما لا يزال ولكن

رائحة خانقة حامضة قابضة نفاذة واجهته لدى فتح الباب . مد يده يضيء النور ولكن الشلل أصابها قبل أن تصل إلى المفتاح .. فقد انطلقت من المطبخ الضيق آهة صارخة ثاقبة ، كعشرات من الإبر الحادة المسمومة انطلقت فى كل اتجاه . لا يمكن أن يكون هذا صراخ ألم أو للتعبير عن ألم ، ولا مجرد أصوات .. إنه شيء مادى فى الجسد ويصيب السامع بالحمى فوق احتمال البشر .

أضاء النور وهو فعلا خائف . ولم يلمح فهمى فى الحال فقد وجد الفراش الذى منحوه إياه ممزقا مكوما ، والمطبخ بكل ما فيه مبعثرا ومدلوقا ، والمقشات منتزعا قشها وريشها .. ومنثورا ، وعددا لا يحصى من بقع الدماء الصفراء تصبغ الأرض وباب الثلاجة والمناضد البيضاء ، والرائحة النتنة الخانقة لا تزال هناك .. لكأنه كان ميدانا لمعركة حامية الوطيس دارت بين إنسان أعزل وخصم جبار غير منظور ! لكأن الصرخات كانت صرخات رعب الإنسان من عدو خفى يسحقه بالضربات وهو عاجز محاصر متألم مهزوم لا حول له !

ونظرة ثانية ألقاها على المطبخ بعينى الزوجة هذه المرة ، أدرك بعدها أن فاجعة لم يكن يتوقعها أبدا قد حلت . وبحث عن فهمى فوجده قد حشر نفسه بين منضدتين من مناضد المطبخ عاريا تماما ليس عليه إلا فانلة مهرأة . رأسه يتحرك فى كل اتجاه . عيونه الميتة المطفأة تقدح بشرر أبيض دائبة الحركة فى محجرها تبحث عن منقذ ومخلص ، وبكيانه كله كان يتجه إلى أعلى فى يأس كامل كمن يدرك تماما أن لا نجاة . إنه ألم سرطان المثانة المروع حين يزحف مع الليل ، حين تبدأ قطرات البول تتجمع بحمضها عبر الورم الخبيث الذى نفذ إلى كل المسالك ، ومرور القطرة على الورم المتهتك المجروح يسحق بالألم الذى يصدره كائنا حيا فى ضخامة الفيل وبلادة إحساسه ، ويجعله يجثو ويحفر الأرض بأظلافه ويملأ الدنيا

بهتاف مروع صارخ .. إنه الألم الذى يسمونه فوق احتمال البشر فهو لم يخلق لبشر ، ولم يخلق البشر وتزود أعصابهم بتلك القدرة الهائلة الدقيقة على الإحساس كى يسحقها ويكويها ألم كهذا الألم .

أخرج فهمى من مكانه ولا يزال رأسه وعيناه وكل كيانه فى حالة تلفت مسعور وبحث عن مفر .. مشغول عنه وعن المكان والزمان والدنيا كلها بما هو حادث فيه وداخله ، فيقف ويجثو ويتمدد على بطنه ، ويركع ويقوم هالعا واقفا ويفتح فمه استعدادا للصرخة ، وحتى يكتمها ويحتملها يحشو فمه بذراعه أو بالمخدة أو المقشة ، ويغرز أسنانه فيها ، ويسيل الدم من الذراع ومن الفم ومع نقاط البول الكاوى .

وشعر بضغط خانق يكتم أنفاسه ، وبرغبة مجنونة أن ينطلق هادرا لاعنا نفسه وبلده وأناسها ، واليوم الأسود الذى كتب عليه فيه أن يولد منها ويصبح عليه أن يحيا عمره كله يحمل عن أناسهم همهم وفقرهم وعجزهم ومرضهم ، وأخيرا آلامهم وبولهم . ولكن ما الفائدة ومن يتلقى لعناته واحتجاجاته ؟ إنه لا يستطيع حتى أن يطلب من فهمى أن يكف عن الصراخ أو يرغمه على البقاء فى ركن بعينه من المطبخ ، إلا إذا كان باستطاعته أن يأمر الألم الذى فى داخله أن يكف والشيطان الذى يمزق أحشاءه أن يهجع .

وسمع خطوات مترددة فى الصالة .. ومخافة أن ترى الفاجعة الحادثة أطفأ النور وأسرع عائدا إلى حجرة النوم ليجد عفت فى منتصف المسافة .

ــ هيه .. عملت إيه ؟

ــ قلت له يسكت .

ــ وإن ماسكتش ؟

ـــ حايسكت .

آى ياى ياى ياى ياى ياى .

وأسرع خلفها إلى حجرة النوم التى فرت إليها مذعورة ، وما كادت الصرخة تنتهى حتى وقفت تواجهه وتهيئ نفسها للعاصفة المقبلة الهوجاء . ولكنه أسرع واستطاع رغم دفعاتها وتملصها أن يحتويها بين ذراعيه ويقاوم إحساسه بالرغبة الملحة فى الانهيار ، ويعترف لها بصدق واضح وملموس أنه أخطأ ، وأنه ما كان يجب أن يرتكب هذا الخطأ ، وأنه يطلب الصفح وأن يكون صفحها على هيئة مساعدته فى تدبير الحل للموقف .. فهما فى قلب الأزمة معا ولا سبيل أمامها إلا الاحتمال .

ـــ وماتنزلوش ينام تحت عند البواب ليه ؟

ـــ فضيحة والساعة اتنين .

ـــ أروح أنا عند ماما .

ـــ دلوقتى ؟

ـــ أنا ماأقدرش أستحمل .

ـــ عشان خاطرى .

ـــ ماأقدرش .

ـــ أرجوكى .. غلطة وباعتذر عنها ، وبارجوكى إنك تساعدينى وتستحملى .

ـــ أستحمل إزاى يا رب ؟ أستحمل ازاى ؟

* * *

آى آى آى يى يى يا ياى !

( لغة الآى آى )

ــ آه يا مامى ماقدرش على كده ماقدرش .

ــ ووووووو ه بيييييه .

ــ إيه ده ؟ ده مش بنى آدم . دول عفاريت ، دول جن . الحقينى يا ماما أنا ح اجنن .

وشيئا فشيئا بدأ الحديدى يحس أن ارتباطه بحجرة النوم وبالزوجة التى يحتضنها ويسكنها بالبيت والحاضر كله تضعف ، وبتوتراته تتراخى ، وبوجدانه يستحيل إلى بحيرة هادئة ملساء . على استعداد لاستقبال أدق الرذاذ الصادر عن فهمى .

فرتك مرتك شرتك دى دى دان .

الألم لا بد قد ازداد بدرجة مخيفة .. خفف عنه يا رب !

واج الواج الواج الواج الواج .

وإلى جوار هذه القادمة من المطبخ جاءت أخرى رفيعة طفلية من الحجرة المجاورة ، ما كادت تسمعها عفت حتى خلصت نفسها بقوة عاتية خارقة من تكتيفته وجرت خارجة إلى الغرفة الأخرى . ولكن الطفل .. طفلها الوحيد قابلها قادما باكيا مناديا : يا مامى ! واحتضنته وحملته ، وبتنمر وتوهج قالت للزوج :

ــ اسمع ، انت لازم تطرده حالا دلوقتى يروح يشوف له مصيبة يبات فيها . دا الولد قايم يرجف .. يا مصيبتى !

ــ يا عفت أرجوكى .. أنا شرحت لك الظروف ــ الراجل ده عندى مهم قوى وماقدرش اطرده .

ــ مهم أكتر منى ومن فهمى ده ؟

ــ مش أكتر إنما مهم ، كفاية تعرفى انى مسمى فهمى ابننا ده على اسمه .. ده الوحيد اللى خرجت به من طفولتى .

ــ يا ح تطرده يا ح اسيب لك البيت وانزل :

ــ إنتى عايزه منى إيه ؟ أركع لك ؟ قلت لك أرجوكى .. أنا ح اجيب له دكتور يديله مخدر دلوقتى ويسكته .

وانشغل بكليته فى عملية استدعاء طبيب الإسعاف وانتظاره ، ولم يدهش حين أخبره الطبيب أن المخدر فى حالة كتلك ضعيف المفعول لا ينجح عادة فى تسكين الألم ، فآلام هذا النوع من السرطان أقوى من المخدرات وكل المسكنات التى اخترعها الإنسان .

وكانت الفائدة الأهم للطبيب أنه أعطى الزوجة حقنة من عقار منوم ، وبعد مدة قليلة نام فهمى الطفل فى حضن أمه .

وأخيرا أصبح وحده مع الصرخات القادمة من الأعماق ، وكما قال الطبيب لم يكن المخدر قد أحدث تأثيرا يذكر . المشكلة الآن أن يعاد الاتصال .. أن يعود إلى نفس الحالة الوجدانية التى كان عليها قبل أن يصحو الولد وتثور الزوجة . إنه يعرفها ويذكرها وهى قريبة دانية ولكنها ترف وتذهب ، يتذبذب بينها وبين حالته العادية ، يه يه يه يه فمندا مندا هوندا بندا سارادات .

وأحس براحة باهتة ، وبالأصوات تصل إلى مكان سحيق داخلى فيه وتنعشه فى رقة وعذوبة ، بالضبط هذا هو المكان . هنا يحس بها تتجمع .. آهاته التى لم يطلقها آى باى يانا يا بوى .

يا بوى موجوعة تأتى للحديدى بالضبط على الوجع . يا بوى ! إنها ليست من لغة الحياة ولكنها من لغة الأعماق والآى آى . إنه يحس بها تعبر عن وجعه

هو . منذ سنوات وسنوات وهو يريد أن يقف فى ميدان التحرير ويستجمع شجاعته ، وبكل قوة وبآخر ما يستطيع يطلقها عالية موجوعة صادرة رأسا من الوجع مثلما يفعل فهمى الآن ، ولكنه فى اللحظة الأخيرة يعدل ويضعف ويخاف أن يسخر منه الناس ويتهموه بالجنون ، فيخمدها ويكبتها ويردها إلى حيث ترقد الكثيرات من زميلاتها المكبوتات المحبوسات .

آى آى آى فركش أى منكش أى بعقش أى ..

الآن فقط يحس بها كلها .. بآلامه ، ويحس بها أبشع حتى من آلام فهمى وأوجاعه .. كل الفرق أنه ليس له الحق فى التوجع مثله ، لن يصدقه أحد إذا صرخ وترك أعماقه تعبر عن نفسها المكتومة الوارمة المضغوطة . ألم بلا آهات .. أضعاف أضعاف الألم .

الآن وهو وحيد مع نفسه وموجع مثله. وأعماقه مفتحة الأبواب أمامه ، يستطيع أن يسأل نفسه : ماذا يؤلمه ؟ إنه فوق القمة ، كل الخط العريض الذى رسمه لحياته تحقق ، زوج ورب أسرة وسعيد محوط بالرعاية والحب والاحترام أنى يكون ، فمن أين تجيئه الآلام التى لا تطاق حتى إنه ليحسد فهمى على حالته .

ترى ماذا يفعل ويشعر لو حدث له ما حدث لفهمى ، وبدلا من التعليم المتواصل الذى هيأه له أبوه الصراف الذى كانوا يتندرون عليه ، ويسألونك وأنت ذاهب لتدفع المال : مال الحكومة واللا مال الصراف . بدلا من هذا أخرجه أبوه من المدرسة واشتغل فلاحا وكان هذا مصيره ؟ أى إنسان فى مكانه لا بد أن كان يقبل يده ظاهرا وباطنا . أين هو وأين فهمى ؟ هو الذى لا بد تختاره إذا طلب إليك أن تختار مائة يمثلون الصفوة فى هذا البلد ، المتمتع بكامل صحته

وحياته لا حق من حقوقه مهضوم ولا شعرة ظلم تمسه أو تمس مركزه . أين هو من إنسان كفهمى تكفل الفقر بالقضاء على عقله وأحاله إلى واحد آخر من ملايين الفلاحين السذج ، وتكفلت البلهارسيا بالقضاء على جسده .. فالمفروض أنه الآن ميت وعمره مسألة أيام ، وحياته كانت أبأس حياة ، وشقاؤه كان من نوع يضرب به المثل .. لو كان قد حدث له هذا .. تراه ماذا كان يقول « ألمه » المزعوم وأوجاعه ؟

قال الحديدى لنفسه بلا تردد : كنت أكون أسعد .

كيف ؟ المسألة ليست فقرا وغنى أو تعليما وجهلا ، السؤال هو : هل أنت حى أم ميت ؟ فهمى رغم كل شىء حى وعاش . أما أنا فلم أحى ، والحياة أى حياة أروع ملايين المرات من الموت أى موت ، حتى لو كان الميت مكفنا فى ملابس أنيقة محتلا أرقى المناصب سعيدا فى حياته الزوجية .

ولكنك حى . أنا ميت . إنه ليس تلاعبا بالألفاظ ، إنها حقيقة المقياس الوحيد للحياة أن تشعر بها وأنا لم أشعر ولا أشعر بها .. إننى أقضى حياتى كعملية حسابية دقيقة هدفها الوصول .. وحين أصل لا أسعد لأن أمامى يكون ثمة وصول آخر .

إن فهمى قد عانى من الفقر والبؤس ، ولكنه كان يعمل مع الرجال ويضحكون سويا ويتشاورون فى مشاكل العمل ويستمتعون بمشوارهم إلى السوق . يفرحون لعود الفجل إذا أضيف إلى الأكلة ، ولا أحد منهم يأكل بمفرده إذ الطعام ليس أن تجوع وتملأ بطنك . الأكل عندهم أن يحل موعد الطعام ويلتفوا حوله فى ترحيب ويتعازموا ويهزروا ويحسوا أنهم يقومون باحتفال إنسانى صغير . إنهم يفعلون هذا دون أدراك لكنه ولكنهم به . بهذه الأشياء الصغيرة

الكثيرة المتناثرة فى طريق حياتهم يمتلئ كل منهم بإحساس يومى متجدد أنه حى ، وأن الحياة مهما صعبت حلوة .

أنا قضيت حياتى أجرى وألهث لكى أصل إلى القمة كما تسمى .. كان على أن أظل أصعد ولهذا كنت أصادق ، أو تضمنى المجموعة ، لا لكى أستمتع بصداقتى ورفاقيتى لها ، وإنما على أساس سرعتها وعلى اعتبار أنها أسرع من المجموعة التى هجرتها . وأظل سائرا معهم ما داموا يسيرون بنفس السرعة التى أريدها حتى إذا أحسست أننى بحاجة إلى سرعة أكبر هجرتهم إلى مجموعة أخرى ، أو سرت بمفردى كى لا يعوقنى معوق . وما توقفت مرة كى أواسى متخلفا أو آخذ بيد أعرج معتبرا أن ليس الذنب ذنبى أنه تخلف ، أو أنه خلق أعرج . ولقد ظللت أسرع وأسرع لكى أبدأ الحياة حين أصل ، ولكن لم يكن للوصول نهاية . بعد التخرج قلت العمل ، بعد العمل الدكتوراه ، بعدها الأستاذية . وحين أحسست أنها تستلزم الانتظار هجرتها إلى الشركات ، قلت .. بعد الزواج ، وحين تزوجت قلت .. نبدأ الحياة مع الأولاد ، وحين خلفت قلت الأوفق حين يكبرون ، وهأنذا لا أزال أجرى مسرعا وقد أصبح هدفى ليس الوصول إلى أى شىء وإنما الإسراع فى حد ذاته ، تماما مثل الذى يبدأ حياته بتوفير النقود كى يحسن مركزه المالى ويبدأ يحيا بعد الألف الأولى ، وحين يصل إلى الأولى يصبح هدفه الثانية فالثالثة ، إلى أن ينسى الهدف تماما ويتحول إلى بخيل مقتر هدفه جمع المال ليس إلا .

يانى يانى يا بوى .

أحس بتوجع فهمى يريحه راحة بدأت تصبح عظمى وكأن فهمى يتوجع لكليهما ، أو أكثر من هذا كأنه هو الذى أتيح له أخيرا أن يتوجع كما يريد وبكل

قدرة استطاعته ، إنه الألم المتراكم عبر السنين .. ألم الحزن الدفين والاكتئاب . إن الإنسان جهز بتركيبه وأحاسيسه لحياة خاصة تسمى الحياة الجديرة بالإنسان ، وهو لا يستطيع أن يخرج عليها ويحيا حياة من صنعه هو ومن ابتكاره إلا وهو يتألم وآلامه تتضاعف . ولقد قسا العمر كله على طبيعته وكتم نداءات الأعماق المطالبة بمتع الحياة الصغيرة الكثيرة العادية التى تعطيها طعم الحياة .. قسا عليها ليجبرها أن تحيا بمفردها .

أبوا .. أموا .. أبوا أموا .. أبو .. واه .

بالضبط يا فهمى .. الوحدة للوصول ، الوحدة للسرعة ، الألم البشع لفراق الناس والبعد عنهم .. الوحدة القاتلة التى تربى الخوف من الآخرين وتدمر الثقة بالنفس . الوحدة لكى تكون حرا أكثر وحيا أكثر ، فإذا بها تؤدى إلى التقوقع والرعب من الآخرين وتحديد الحركة وإحاطتها بعشرات القيود . همه يحمله وحده ، ومرضه ينفرد به ، وضيقه هو المسئول الوحيد عنه . الألم .. أضعاف الألم الذى يسحق فهمى ويدمره وهو مرغم على كتمانه يخاف خوف الموت أن يطلع عليه أحدا ، فإن تألم الرجل أو حاجته للفضفضة إلى الآخرين ضعف وعورة .

دى دى دى دى دى دى ..

يا للمضحك ! إنه يحس أنه ربما لأول مرة يذكرها فى حياته .. سعيد ، سعيد إلى درجة لا يصدقها العقل ولا يصدقها هو نفسه .. إنه حقيقة متأثر لأوجاع فهمى ولكن فرحته هو لهذه اللحظة التى يحياها ، أجل ربما أول لحظة يحياها ، لا توصف . ومن الصعب أن يدرك الأسباب ولكن لا بد أن أهمها أنه أخيرا استطاع بوسيلة معقدة مركبة تعتمد على أعماق تخاطب أعماقا خلال لغة غير

مفهومة ، أخيرا استطاع أن يتصل وأن يشارك وأن يزاول عملا من أعمال الأحياء ، يزاوله بمتعة وسعادة .. سعادة تدخله فى حالة وجدانية لها صفاء لحظة الكشف لدى المتصوفين وعمق لحظة الخلق لدى العباقرة . لحظة ها هو يحس فيها أنه قادر على الاتصال بنفسه والتحديق مليا فى أعماقه دون أن يرده الرعب المقيم مما قد يراه .

وكلما اندمج فى حالته الوجدانية تلك أحس بنفسه تتفتح أكثر وتعمق وتتقوى صلته بفهمى حتى لكأنه يقرأ ما يجأر به فى كتاب مفتوح ، وأحس أيضا أنه ينجذب إلى مكانه ليصبح أقرب .. انجذابا مريحا ممتعا إلى درجة لم يدرك معها أنه كان قد غادر الفراش ومضى يعبر الصالة فى عدد كبير من محطات الممشى الضيقة كل خطوة بمحطة ، سمع كالصوت البعيد يأتى للنائم نافذة جار تفتح ، ويعقبها صوت زعيق وما لا بد أنه كلمات سباب .. سمعها وكأنها لا تمت إليه ولا تهمه . إنه يرى حياته الآن بكل كبيرة وصغيرة حدثت فيها ولها مجسدة مجموعة أمامه ، بحيث بنظرة واحدة يستطيع أن يرى نفسه تقريبا من يوم ميلاده إلى يومه هذا .

الغريب أنه ينظر إليها وكأنها حياة غريبة عنه لا تربطه بها أو بصاحبها أدنى علاقة ، لا تربطه ذكرى بأى جزء فيها أو موقعة .. وأغلب الظن أنه لا يذكرها . إنه لا يكره شيئا فى الدنيا قدر كراهيته لحياته تلك ، إنه يمقتها ، ولولا النداء القوى الصادر له من فهمى لحملها فى التو وقضى عليها وعلى نفسه ، ولكن النداء أقوى .. إنه يتسرب إلى كيانه كله ويهز هيكل الحياة فيه ليوقظ حبه الغريزى لها . ومن الظلام الكثير الرابض يملأ الصورة فتبدأ تتسرب موجات كاشفة مضيئة يجسر معها على التحديق والرؤية ليتابع نفسه وهو يجرى ويجرى .. وحده . الناس تحيا وهو يجرى ! والشاشة مليئة بالصلات المقطوعة ، بالصداقات

المبتورة ، بأجزاء العلاقات ، بقيم على الطريق مهدرة ، بإنسان لا يريد أن يرتبط بأحد حتى لا يعطله الارتباط ، ولا أن ينتمي لجماعة أو حتى لصديق لأن فى الانتماء فقدانا لذاته الحرة وكيانه . والنتيجة جرى سريع إلى قمة الوصول هو فى الحقيقة هرب سريع من الحياة ، فالحياة هى الأحياء ، ولا حياة لى أو لأحد إلا بالأحياء ، وأن تنفصل عن الأحياء معناه انفصال عن منبع الحياة الأصيل وفقدان طعمها ونوعيتها والتحول إلى الموت .

الخطأ الفادح الذى يدركه الآن وعلى الضوء الباهر الصادر من أعماق فهمى إلى أعماقه يراه ، أن الوصول لا قيمة له بالمرة إذا وصلت وحدك . أية قيمة أن تصبح ملكا متوجا أو عالما حاصلا على جائزة نوبل وأنت محاط بصحراء جرداء ؟ أية قيمة لأى شيء فى الدنيا .. للمتعة نفسها أن تحس بها وحدك ؟

وصحيح أنه ليس وحده ، فهناك زوجته وابنه وأقرباؤه وإخوته وبعض الأصدقاء ، ولكنها ديكورات علاقات ليس إلا .. إن حب الناس للناس وارتباط الناس لا ينشأ للزينة وإنما ينشأ لحاجة الناس للناس ، الحاجة الماسة الملحة كحاجتك إلى الماء والهواء ، والتى بدونها لا تستطيع أن تعيش . وهو له إخوة وزوجة وأناس ولكنهم لا يمثلون مطلبا حيويا بالنسبة إليه ، إن فى استطاعته إذا أراد أن يحيا كما تعود بدونهم . قد يكونون هم فى حاجة إليه ولكنه هو ليس فى حاجة لأحد ، أو بالأصح هو فى حاجة حيوية ماسة ولكنه يحس ويوهم نفسه مثلما أوهمها طول عمره أنه ليس بحاجة إليهم .. ومن هنا ينشأ ألمه البشع .. من هنا بدأ ويستشرى السرطان الذى يقتل الضحكة على فمه لأنه يحس أنه ليس بحاجة إلى الضحك ، ويجمد العواطف فى صدره لأنه يحس أنه ليس بحاجة إلى أن يعطى الحب أو يستقبله ، من هنا تبدأ المأساة التى أحالته إلى ميت حى .

* * *

وجاءته صرخات فهمى قريبة هذه المرة ، إذ كان قد وصل إلى المطبخ وجلس بجواره . جاءته بعد سكوت خيل إليه أنه طويل ، وكأن مجرد إحساس فهمى بوجوده بجواره خفف عنه الألم .. جاءته الصرخات أقرب ما تكون إلى البكاء ، وأحس بنفسه وكأن بركانا يوشك أن ينفجر . إنه لم يبك فى حياته منذ أن كان طفلا ، وها هو يحس أنه يود لو ظل يبكى إلى أن توافيه المنية إشفاقا على نفسه ، وهو أول من أدرك أنها أكثر أهل الأرض جميعا حاجة إلى الشفقة .

هات يدك يا فهمى ، ضعها هنا على صدرى فإنه خاو كما ترى . أنا أعرف أنك مريض وأحس بك وأريد أن أقاسمك الألم ، ولكن لا أستطيع فقلبى من خشب ، تركتكم جميعا . أنت فى زينين وسعد فى بنها وعبد المحسن فى أسيوط ، وشلة الجامعة وجمعية الكتاب وكل الناس ، وظننت أنكم تسيرون فى الطريق العادى طريق الندامة .. وأن الطريق الأسرع طريق السلامة هو الطريق .. والنتيجة أنى مت من زمن وظللتم أنتم أحياء ، أنا جثة أقنع نفسى أننى أنا الذى أزور عن الناس فى حين أنهم هم الذين يزورون عنى وما حاجتهم إلى جثة . حتى زوجتى وابنى أحس أنهما لا يطيقان رائحتى .. أنا أريد البداية من جديد ، أطلب فرصة أخرى . فمن يقبلنى يا فهمى ؟ من يقبل جثة ؟ من يرضى بى ؟ إنى لا أجد فى هذه اللحظة سواك يا فهمى ، هل تقبلنى ؟ هل تقبلنى يا فهمى ؟

— ماتعيطش يا محمود .

ولم يصبه الذهول مع أن القائل كان فهمى .. وكانت أول كلمات ينطقها . ولم يعجب أيضا لأنه ناداه بمحمود وكأنما ذكره الاسم بالتختة المشتركة وبأيام زمان . كل ما أحس به أن رجاءه قد تحقق وأنه يقول :

— أشكرك يا فهمى .. أشكرك .

وانبطح الحديدى بيجامته على بلاط المطبخ وتناول يد فهمى يقبلها ويمسح بها دموعه السائلة التى لا تتوقف وهو يردد : سامحنى يا فهمى .. سامحونى يا ناس.. أنا غلطت وتعبت والألم فاض بى .. سامحنى يا فهمى .

ولكن فهمى كان قد عاد بآخر وأقوى ما عنده يصرخ وآلامه قد اشتدت بغتة .. وكانت نوافذ البيت جميعها قد فتحت من زمن وسكانها يصيحون رغم أنوفهم للآهات المستغيثة .. ويستجيرون من الصوت الذى لا يرحم أبوابهم ونوافذهم مهما أغلقوها وأحكموا الإغلاق . الصوت الذى أيقظ العمارة ببوابيها وبهواتها وساداتها وداداتها وبدأ يصل إلى العمارات المجاورة ويوقظ سكانها ، ولو استمرت الصرخات لربما كانت قد أيقظت الحى الراقى بأكمله .. ومن يدرى ربما المدينة كلها كانت قد صحت .. ولكنهم كانوا قد طلبوا بوليس النجدة .. وحضر وفتحت له الزوجة نصف نائمة ، غير أنها استيقظت تماما حين قادتهم إلى المطبخ ووجدت الحديدى راكعا على الأرض يقبل يد فهمى ويستغفره..

ورفعوا فهمى وألبسوه ، وحاول جنديان حمله فيما بينهما ولكن الحديدى نهرهما وتقدم هو من فهمى وحمله على كتفه .. والمرض قد التهم لحمه ولم تبق له سوى العظام . وتشبثت عفت بزوجها سائلة إياه عما يفعله بنفسه وإلى أين هو ذاهب ؟ وابتسم لها وأضاء وجهه كما لم تتعود بالابتسامة وقال :

ـــ رايح فى طريق تانى صعب شديد .. تيجى معايا ؟

ـــ أنا مارحش وياك بالشكل ده .. انت اجننت ؟

وأحاطت فهمي الصغير بيديها بينما استدار الحديدى يحمله الصارخ المولول ، ومضى يتقدم الموكب ونظرات السكان وأهل الحى تتبعه وتحيط به وتهمس

وتسرى بينها الهمسات الضاحكة .. لقد عاش فى الحى سنتين مرعوبا أن يكشف أحد أصله وفصله ، وتبدو للأعين النائمة شعرة واحدة تكشف عن الجذور والسيقان التى يمت إليها .. ولا ريب أن كثيرين من سكان الحى كانوا يفعلون مثله ، فها هو يرى النوافذ والمدخل حافلة بكثير من الجثث .. وهو الآن يستعجل اللحظات التى يغادر فيها الحى وقد أصبحت الرائحة لا تطاق ..

# اللعبــة

دخل القادم الجديد مذهولا .. كان المكان وكأنما تحس أنك سقطت إليه من عل أو وصلته عن طريق سرداب طويل مزعج ، ولكنه كان فاخرا بالغ الفخامة .. اللون الغالب فيه هو الأسود . سواد كسواد الكاديلاك يوحى بالأناقة والعراقة . وكان النور غير ثابت المصدر ومضطرب الاتجاه .. وتحس وكأنما توجهه يد خفية إلى الناحية أو الناس الذين ينظر إليهم فقط ، كان غموض مرح يسيطر على جو الحفل ، والحضور تدرك بطريقة ما أنهم كثيرون ، ولكن عدد من يقع بصرك عليهم قليلون تستطيع التفرس فيهم بسهولة .. ودخان السجائر والسيجار يلون الجو ببقع سماوية متحركة ، ويتشابك مع إشعاعات النور غير المرئى صانعا سحبا كسحب الصيف بيضاء ، والحفل صاخب إلى حد ما ولكنه صخب وقور كأنه احتفال بخطبة شاب ممن أعرق عائلات الصعيد ، أو بتكريم خاص لوزير مهم . وعلى الوجوه نوع من الاستمتاع القلق الذى ينتاب هذا النوع من صفوة الناس كلما أتيحت لهم متعة ، مخافة أن يضيعوا فيها وقتا من أوقات الكسب . وخدم وكأنهم استحضروا خصيصا للمناسبة بأكثر من زى لكونهم درجات ، والسيدات فى فساتين السهرة ولكنها ليست جديدة تماما كأنما لم تستعمل من أعوام واستخرجت للمناسبة من الدواليب ، غالية تبدو عليها آثار العز ، بعضها مطرز باللآلئ وإن كانت صغيرة لكنها حقيقية ، والوجوه .. وجوه الرجال مكتنزة قليلا ولكنها شاحبة كالمجهدة . والسيدات

عيونهن رغم تعدد ألوانها تبدو كلها سوداء عميقة الغور وكأن صاحباتها يعانين من جوع جنسى لا يدركنه ، والمقاعد قليلة متناثرة أقل بكثير من عدد الحاضرين ولكنها راسخة فى أماكنها وكأنما مضت عليها أحقاب ، وقماشها من القطيفة الحمراء الغامقة التى حمرتها مع سواد البدل ورماديتها مع الفساتين الفاتحة . والسقف الأخضر بانعكاسات الضوء ، وسحابات الدخان المتعددة الدرجات ، والعبير الصادر عن « برفانات » حديثة وإن كانت تعطى رائحة عطر الجدات العربى القديم ، والضجة المكتومة الصادرة عن لا مصدر والتى تتيح لكل إنسان أن يتحدث مع أى إنسان دون أن يثير الانتباه أو يتسرب من حديثهما الكلام ، كل هذا جعل القادم الجديد يحملق ويتردد ويضطرب كثيرا قبل أن يستطيع أن يتبين أين يكون موقفه . كان واضحا أنه لا يمت إلى المكان أو الحاضرين وكأنما دخله بطريق الخطأ ، ولكن من ملامحه وتصميمه كان يبدو أن له الحق فى الحضور ، وأنه يملك ربما فى جيبه هذا الحق .. وإنه على استعداد لأن يظهره ويتحدى به كل من يجرؤ على سؤاله أو التصدى له . ولم يكن أحد قد لاحظ دخوله أو اكترث به مما أتاح له أن يتدبر موقفه وأن يتأمل الجميع ، أو بدقة أكثر من استطاعت عيناه أن تقع عليه من الجميع ــ تأملا كان يدفعه إلى مزيد من القلق . وشيئا فشيئا يخلخل ثقته بنفسه . أين يقف ؟ تلك كانت مشكلة ، وهل يؤثر الوحدة أم لا بد له أن يشتبك مع الآخرين فى حديث ؟ مشكلة ثانية . ومع من يتحدث إذا أراد ؟ وفى أى موضوع ؟ وبأى حق ؟ مشكلة ثالثة ورابعة وخامسة .

أم تراه قد أخطأ المكان وتكون الكارثة ؟

ودهش فعلا حين وجد دونا عن الحاضرين شخصا يقترب منه .. كان جليا

أنه ليس من الخدم فلم يكن يرتدى مثلهم ، ولا من الحضور فهم منصرفون إلى أنفسهم متكبرون لا يمكن أن يفكر فى أى منهم فى مبادأته بالحديث . ولأمر ما كان فى مشية الرجل وطريقة اقترابه وابتسامته المتشح بها ما يذكر بالأدلاء الذين يتهافتون حول الفنادق لإرشاد السياح .. حتى سترته التى يرتديها بدت أكامها ومقدمتها كأنهما أكام ومقدمة جلاليب الأدلاء البلدية . وما أن اقترب من القادم بدرجة كافية حتى اكتشف أنه يحمل أمامه وكأنما بحزام صندوقا كالصناديق التى يحملها باعة السجائر ولكنه أصغر كثيرا ولم يكن بحزام ، وأنيق جدا جدرانه وأركانه مطعمة ومشغولة بأسلاك معدنية ثمينة .. وحين وصل إليه وسع ابتسامته بطريقة بدت وقحة الأدب ، وقال بصوت فيه بعض التحدى وبعض الإغراء :

— تضرب يا بيه ؟

واضطرب القادم بانفعال مفاجىء . كان قد بدأ يدرك أن الرجل يحمل لعبة من نوع ما ، وأنه ليس الوحيد فهناك أكثر من واحد غيره يطوف بأرجاء المكان ، بل هناك أكثر من لعبة يزاولها بعض الحاضرين فى أطراف المكان الذى بدأ يصبح أكثر اتساعا وكأنه ناد ، وكأن الاحتفال مهرجان ما أو ( تمبولا ) ، والرجل لا يزال واقفا أمامه يبتسم .. نفس الابتسامة المؤدبة الوقاحة ، ويعرض عليه مرة أخرى بإغراء أكثر :

— تضرب يا بيه ؟

وحتى دون أن يسأل أظهر له يده اليمنى فإذا فيها مسدس من نوع غريب أسود لامع بطريقة ملفتة للنظر ومحيرة ، جديد وكأنه لم يستعمل قط ، وحتى دون أن يشير أدرك القادم أن الصندوق الأنيق ملىء بطلقات مرصوصة بنظام رائع

ومقلوبة بحيث أن قواعدها إلى أعلى .. أما الشيء غير العادى فهو أنه فى الصف الأخير الأيسر توجد رصاصة ليست مثل غيرها من الطلقات .. فقاعدتها ليست برونزية اللون ، وربما المادة كالأخريات .. ولكنها وكأنها مصنوعة من فضة مشعة أو لا بد من معدن ثمين بريقه يخطف البصر ، بحيث إذا نظرت إلى الرصاصات المقلوبة فى الصندوق لا تستوقف هذه الطلقة بالذات انتباهك قط ، ولكنها تستولى عليك تماما وتكاد تعجز أن تحول البصر عنها ، تضرب يا بيه ؟ مرة ثالثة قالها الرجل . وبالضبط لم يستطع القادم أن يحدد إن كان حقيقة قد قالها فى المرتين الأخيرتين أم أنه نفس النداء المغرى يتردد صداه فى عقله لثانى مرة . بالكاد استطاع أن يسترد بصره المثبت على قاعدة الطلقة النادرة ليعود يعى بالرجل واللعبة . وحتى دون شرح فهم أن عليه أن يتناول من الصندوق طلقة ويضعها فى المسدس ، ثم يذهب إلى مكان فى الركن مخصص للإطلاق حيث يوجد هناك حاجز تماما كما يوجد فى لعبة التنشين بمدينة الملاهى ، كل الفرق أنه لا توجد عدة أهداف إنما هدف واحد لم يستطع من موقفه أن يتبينه ، فإذا أسقطه يفوز بالجائزة ، وأيضا لم يكن يدرى ما هى الجائزة ، ولكنه كان متأكدا أنها أعظم جائزة نالها أو ممكن أن ينالها فى حياته . وبدا كل شيء يسيرا والجائزة أعظم جائزة قاب قوسين أو أدنى .. وما عليه فقط إلا أن يستعمل هذه الطلقة المشعة المتلألئة . حركة من يد الرجل أوقفته ، يده اليسرى الخالية من المسدس أشار له بها مطالبا بثمن الاشتراك فى اللعبة ، موضحا بأصابعه القيمة . وأخرج القادم من جيب بنطلونه جنيهين حسبما حدد وضعهما فى يده .

وكان مفروضا حينئذ أن يعطيه المسدس ويتناول الطلقة الفريدة ويعمر ويذهب إلى الركن ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث . فجأة بدا كل شيء يعيد

الوقوع .. المسدس فى يد الرجل وفى متناول يده ، والطلقة فى مكانها من الصندوق تزغلل عينه ، ولكن هناك مماطلة ومراوغة ربما من أجل ألا يستعمل هذه الطلقة بذاتها .. ربما للتسويف فى التنفيذ .. ربما لأن هناك أشياء كثيرة لا بد أن تستوفى والوقت يمتد دون أى داع للامتداد ، والموقف لا يتحرك أو يتحرك منزلقا متراجعا .. وابتسامة الرجل تصبح أكثر وقاحة وأقل أدبا ، وقلة اكتراث بالحاضرين وانصرافهم إلى أنفسهم تزداد بشكل يجعل من موقفهم ذلك عاملا إيجابيا يتدخل ويساعد الرجل فى مماطلته ويحول بينه وبين أن ينال حقه وقد دفع قيمة الاشتراك ، وغيظا فغيظا بدأ يحس إحساسا يتعمق ويندك كالمسمار المدبب الطويل فى نفسه . إنه ضحية خداع لا يستطيع وضع يده عليه أو ضبطه ، وإنه مسلوب الحق ، وإن أحدا وبالذات هذا الرجل الواقف أمامه بدأ يتراجع منصرفا ويحاول الاندساس بين الحضور يريد سلبه حقه والضحك عليه .. وكل من فى المكان وما فى المكان يساعده . فالحضور بدءوا يتكاثرون ، والخدم اشتدت حركتهم . والضجة علت قليلا .. وثمة مؤامرة خفية تدور بين الجميع .. مؤامرة صامتة غامضة تلتف خيوطها خفية تحت ستار الضجة المكتومة وبين ثنايا السحب المدخنة المضيئة ، وحتى من بين أنسجة البدل الغامقة والفساتين الفاتحة والقطيفة الحمراء . وصرخ فى الرجل مهددا وتوقع أن ينتاب الجميع نوبة ذهول لصراخه ، ولكن وكأنه لم يصدر صوتا ما انتبه أحد .. وزعق مرة أخرى ولم يسمع سوى ما كان يسمعه من ضجة الحفل الصاخب المكتوم .. وأصبح الغيظ يخنقه وصغرت الدنيا فى عينه وهانت ولم تعد قوة فى الكون تستطيع أن تحول بينه وبين أن يأخذ حقه ويضرب الطلقة ، تلك الطلقة بالذات . وبيده اليمنى ودون وعى انقض على الرجل وأمسكه من مقدمة سترته ، ولم يأبه الرجل

ولا الحاضرين لهذا العمل .. وكان يخيل إليه أنه عمل يعد جريمة لا تغتفر فى نظر المجتمع المحيط به ، وبيده ممسكة الرجل من تلابيبه حدق فى وجهه .. كانت نفس الابتسامة وقد أصبحت الوقاحة فيها هى الغالبة تطل من وجهه الأسمر المستطيل ، ويستطيل لها شاربه الأسود ، وتجعل أسنانه البيضاء الحادة تطل من فمه المنفرج .. وفى الحال وبيده الأخرى صفعه على وجهه صفعة قوية ، أعجب شيء أن لم يصدر عنها صوت وكأنما هى صفعة معنوية وليست مادية حقيقية ضربها بنفسه وهوى بها بجماع يده على الصدغ المستطيل الأسمر . وانقلب الغيظ إلى غضب ولكنه غضب لم يصبه بالعمى . كان يرى .. لم يفقد أبدا قدرته على الرؤية وأدرك أن الصفع لم يعد يجدى وأن الوقاحة المطلة من ابتسامة الرجل فى حاجة إلى نوع من الضرب أكثر إهانة ، وبكل ما يملك من قوة وبساقه اليمنى ركله فى بطنه ، وكان متأكدا أنه هذه المرة سينفطر ألما فقد كانت الضربة من القوة بحيث لو أصابت الحائط لتألم ، إذ هو نفسه الضارب قد شعر وكأن قدمه قد سحقت ودشدشت . وكان أمله أن ينظر إلى الرجل بعدها فيجده يتألم . يكفيه .. حتى استردادا لكل حقه أن يراه ولو لومضة خاطفة يتألم .. ولكن وجهه .. وجه الرجل .. حين رآه كان لا يزال يبتسم . كل ما فى الأمر أن الأدب ذهب تماما من ابتسامته ولم تعد هناك سوى الوقاحة .. وقاحة مستهزئة مستصغرة وكأنه ينظر إلى طفل .. وكاد يجن فهو مدرك أن الرجل حى من دم ولحم وأعصاب وأنه حتما قد تألم ، فكيف استطاع أن يكبت هذا الألم كله وألا يبدو على وجهه خلجة واحدة أو لمحة اهتزاز تدل على معاناة أو تدل على تغيير ولو طفيف فى تعبيره المبتسم الوقح ؟ وانهال عليه ضربا .. وقد انقلب الغضب إلى حنق مجنون لم يعد يرى معه كيف ولا أين يضرب ، ولكنه كان على يقين تام

أنه بجماع قوته وإرادته يضرب وباستماتة يفعل ، وأنه يضرب هذا الرجل بالذات
ولا يريد ولا يمكن أن يتوقف عن ضربه حتى لو أراد ، فمن هناك من أغوار
سحيقة جدا فى كيانه كانت تتدفق حمم من الحقد المغلى الملتهب وتنفجر معبرة عن
نفسها المخيفة من خلال أيديه وأرجله وأسنانه .. فبأسنانه كان يعض وكأنه
انقلب إلى وحش ، وبكعب حذائه يدك ، وبقبضتيه يضمهما معا ويرفعهما
عاليا ويهوى بهما دفعة واحدة كالمعول الهائل محطما ومدمرا ، وكلما أحس
بالوهن يزحف إلى إرادة الضرب فيه كان يكفى أن يتذكر أنه خدع وضحك
عليه ومنع منعا من مزاولة حقه لتعود إليه كل قواه ، وبكل قواه يحقد ويضرب
يضرب .

وحين تعب تماما ولم يعد يقوى على مجرد رفع اليد أو تحريك القدم ، حين
أحس أنه كله قد تداعى وتهدم وكأنه المضروب وأنه بالكاد يلتقط النفس وأنه
يلهث ، بل لم يعد يقوى على أن يلهث .. بحيث بإرادته لم يعد يتنفس وإنما صدره
آخر قوى الحياة فيه ومن تلقاء نفسه وبغريزة المحافظة على الذات كمصدر فقط
شهق ، كف وسكت ، سكت ، سكن سكونا تاما وكأنه فى طريقه لاستقبال
الموت . وأول بوادر قدرة على الحركة ارتدت إليه ففتح بها عينه .. والمذهل أن
الرجل كان لا يزال هناك واقفا فى تراخ وهدوء أمامه ، والصندوق يحمله ،
والمسدس نصف مختف فى يده ، والطلقة ذات القاعدة النادرة المعدن الخاطفة
للبصر لا تزال فى مكانها من صفوف الطلقات ، وابتسامته هذه المرة وقد عاد
الأدب يختلط بالوقاحة فيها تحتل مكانها من وجهه ، وأيضا لا يزال له موقف
الدليل العارض لخدماته ، وصاحب اللعبة الذى يروح لها ويغرى الآخرين
باللعب ، ولم يعد أمام القادم وقد استنفد كل وسائل القوة إلا أن يلجأ إلى التأنيب

واللوم ، وأودع نظرته كل ما يريد. وإذا بالرجل يجيب وكأنه يقول : « أنا مش قلت لك عايز يا بيه تضرب ؟ » .

وأجال القادم رأسه بضعف فى الحاضرين ، وكأنما أدرك متأخرا جدا أنهم جزء من اللعبة بينما الرجل يقول : وآدى انت ضربتنى ، أجل حقيقة كان يريد أن يضرب ولكنه كان يريد أن يضرب الطلقة لا أن يضرب الرجل .

— ما هى دى اللعبة .

قالها الرجل وقد ازداد الوقح فى ابتسامته .

أيضحك ؟

# لأن القيامة لا تقوم

إنه يريد مرة أخرى أن يسمع ويرهف السمع ، كما يدور مهم .. أهم شيء فى حياته يدور ، وراديو الجيران .. الحائط فى الحائط صوته عال كأنه يؤذن ، ومن بعيد يأتى صراخ الأطفال الذين لا يزالون يقظين : الدبة وقعت فى البير ، وصاحبها راجل خنزير .. هل وقعت حقيقة ؟ وهل هى مستكنة الآن فى البئر ؟ وهل صاحبها خنزير سمين ملظلظ كأبى السباع إسماعيل ؟ إنه يريد أن يسمع ويرهف السمع ، فهى — أمه — ترقد الآن فوقه تماما أو لا بد كذلك فالمرتبة تنبعج من بين ألواح « الملة » الخشبية ولكن انبعاجها شديد . وأمه خفيفة .. فلماذا الانبعاج الشديد ؟ كان هذا زمان حين لم يسمع سوى الهمس فى العشاء .. وابتسامتها السعيدة تغرقهم والطبطبة الحنون ، ثم صوتها المتثائب : قوموا يا أولاد ناموا .. الدنيا اتأخرت ، وكالدجاج المطيع تدخلهم .. ترفع داير السرير الأبيض وتدخلهم تحته . فالبيت حجرة واحدة ومكانه المفضل بجوار الحائط فى الصيف ، فالحائط بارد يلصق نفسه به ويلمس عليه بساقه العارية فيستمتع وكأنه يجرش قطعة ثلج ، ويمضى الصيف ويأتى الشتاء ويغير مكانه إلى الحافة . وطوال العام هناك النقرة التى لم يسمعها بوضوح أبدا لأنه حين يصحو على وقعها الخافت تكون قد كفت ، وتكون القهوة قد شطبت ونورها الكهربائى الوهاج قد انطفأ وأظلم الشارع تماما ، والباب يزيق قليلا كلما فتح وحين يفتح يسمع الهمس والظلام ، لا شيء سوى الظلام التام ونقر كنقط الماء

المتساقطة من السقف بعد انتهاء المطر .. همس .. همسة أو همستان كحفيف قميص نومها ، أو لعله حفيف القميص يبدو كالهمس ثم يسود السكون .. وتصعد أمه فوق الفراش ، فهى وحدها تنام فوق السرير والسرير واسع يكفيهم جميعا ، ولكنها تصر — من زمن من أيام أبيه حتى — أن يناموا جميعا أسفل السرير ، حتى حين كبروا وبدءوا التململ والشكوى وقالوا إن رءوسهم تخبط فى « الملة » رفعت أرجل السرير فوق قواعد ، وأحضرت نجارا خصيصا ليطيل من قوائم الملة حتى ليصبح ما تحت السرير وكأنه حجرة ضيقة حقيقية يلذ له فيها وهو طفل — والأطفال مغرمون بالعشش والمخابئ وأمكنه الاستخفاء — اللعب والرقاد ، وكثيرا ما شكلها بخياله وتصورها خيمة أعرابى فى الصحراء أو خندقا فى باطن الأرض أو مقام شيخ من أصحاب الكرامات .. وبرغم هذا كله كان دائما ينقصه شىء ، فكم من مرة اشتاقت نفسه أن ينام فى حضنها وأن تضمه مثلما كانت تفعل ، وأن تسمح له مرة أن ينام معها هناك حيث المرتبة اللينة والملاءة النظيفة .. وفى الليل عز الليل كان أحيانا يدعى المرض وبصوت مسموع يتأوه ولا من أحد يسمع ، فإذا سمعت أو ضاقت بآهاته سألته بصوت عال ولكنه مملوء بالوعيد والتأنيب .. مالك يا إبراهيم ؟ فلا يجرؤ حتى على أن يواصل الادعاء ويخرس تماما وكأنما تأوهه كان مجرد التماس على استعداد لسحبه فورا ، واستنكاره لحظة أن يلمح أن التماسه لم يلق الترحيب . الظلام والحفيف والهمس ، ثم الأرق الذى ينتاب أمه على أثرها وكأنما سببه هذا النفس الغريب الذى يحس به قد ملأ الحجرة من لحظة أن فتح الباب . أرق لا تستقر معه على قرار فتظل تتقلب وتتحول حتى أن لوحا من ( الملة ) سقط على ساق أخته ياسمين ذات ليلة وجرحها وصرخت وصرخ هو الآخر .. وحين لم تستجب أمه فى

الحال أصيب بالذعر فظل يصرخ إلى أن نام مضروبا . لا بد أنه لم يكن أرقا ، لا بد أنه كان شيئا آخر منذ متى بدأ يعنى هذا الشيء الآخر ؟ بالتأكيد ليست الليلة هى المرة الأولى ، أول مرة وعى كانت ليلة العيد . كانت قد أخرجتهم من الحجرة لتستحم وحين دخلوا عليها بعد هذا وشعرها مبتل وهى تنفضه لتجففه ، وقميصها النظيف مفتوح .. وصدرها — لأول مرة فى حياته يدرك أن لأمه صدرا فلقد رآه ورأى نظرتها ، وأحس فى التو وكأن شيئا فى نظرتها يحف به نفس الحفيف المريب ، وكأنما الدنيا تظلم والهمس يعود صادرا من عينيها ملحا ومشيرا إلى صدرها ، ووجد نفسه لا يجرؤ على الاستمرار وانطلق يجرى إلى الخارج والأولاد ، حيث الدبة التى وقعت فى البير . ولعب ولعب ولعب حتى امتلأت عيونه بالتراب وامتلأ رأسه بالتعب وداخ وعاد .. ودق الباب ودق ولم يفتح له أحد .. وجاء الصوت صوت أمه الملىء بالوعيد : ما دام اتأخرت نام ع العتبة فعلا وكأنه كان ينتظر الأمر بفارغ الصبر ، ولكنه حين استيقظ فى الصباح وجد نفسه مكانه تحت السرير وكانت هى — أمه — إلى جواره .. نائمة بجواره ، وحين رأته يستيقظ احتضنته وقبلته وقالت له : كل سنة وانت طيب يا إبراهيم .. واستكان لحضنها وهو أسعد أهل الدنيا . كل ما كان يضايقه هو رائحة صابون الاستحمام التى كان يشمها صادرة عنها مقترنة لا يدرى لم بإحساس مخجل محرم ، وكاد أن يبدأ يتقلب فى حضنها ويتدلل عليها ويمسك يدها ويلفها حول رقبته ، ثم يلعب فى أصابعها السمراء من الخارج القمحية من الداخل ويقبل كفها ، ثم يقبل كل أصبع من أصابعها على حدة . من عمر طويل لم يفعل هذا ، فمن عمر طويل لم ينم بجوارها ، ولكنه ما أن بدأ يتمرغ فى حضنها حتى أحس بصدرها يضغط بشدة على ظهره ، ليس ضغطا شديدا وإنما ضغط الكتلة من

اللحم الحى ، وصدرها الحى مع رائحة الصابون وعرقها الخاص والهمس فى الظلام .. وجد نفسه يغتاظ إلى درجة البكاء وتسقط دموعه فى صمت على يدها الملتفة حوله فتسحبها كالملسوعة ، وحين تدرك أنه حقيقة يبكى تضمه إلى صدرها بشدة أكثر . وكلما اشتدت فى ضمها وضغطها أحس أنه يريد أن يتخلص منها ويجرى هاربا إلى الأولاد والدبة وصاحبها الخنزير .. ولكنه حين يدرك أن الليل ذهب ، وأن هناك صباحا واليوم يوم العيد حيث يعيد كل الأولاد ويأخذون العيدية ويفرحون بكى ولم يسكت إلا إثر هزة شديدة وصرخة منها : مالك يا وله ؟ ما له ؟ حقيقة ماله ؟ ماذا حدث ؟ لا شيء حدث ، لا شيء يبكيه ، فلماذا هو حزين ؟ لماذا هو حزين ؟ أمن جلسة أبى السباع إسماعيل التى أصبحت تطول ، والقرش الذى يعطيه إياه كل مرة ويرسله ليشترى لنفسه كراملة حتى ولو لم يكن يريد يصر على إرساله .. وهو خائف أن يخرج ويترك أمه بمفردها معه . فإذا تلكأ جاءه الصوت الآمر منها : اسمع كلام عمك إسماعيل يا برهم .. وينظر برهم فى عينيه وكأنما ليطمئن قبل مغادرة الحجرة ، ولا يستطيع أن ينظر فيهما أكثر من ومضة لا لخوفه منه ومن جسده الهائل الضخم ويده السميكة فى سمك مخدة أخيه الصغير فقد كان يكرهه ولكن لأن فى عينيه أنفسها شيئا متحركا غير ثابت ، نظرة خائنة لا تستقر .. تختلط الخيانة فيها بالسخرية ، سخرية جافة خشنة كظهر الليفة يقشعر لها جسده وتدميه ، سخرية بلا خفة دم ، سخرية السمين التخين الذى يتجشأ عقب كل مرة يناوله فيها كوب الماء ليشرب ثم يكمل الحديث بصوته الخشن الرنان ، وآه لو مال على أذن أمه وهمس .. همس متحشرج كهمس الزوران يحس برهم أنه يخرج من فمه وينتشر كالدخان القابض الخفى من حجرتهم وفى حياتهم يملؤها بأثر جارح غير

مريح باعث على الخجل .. ولماذا عمه أبو السباع إسماعيل بالذات ، ألأنه يزورهم ؟ هناك عشرات الرجال يأتون وعشرات يسلمون على أمه ويحيونها ويهمسون لها وأحيانا يعطيه أحدهم قرشا ، إنما لماذا هذا الرجل بالذات ؟ وأمه تضحك مع الكل .. فقط مع أبى السباع إسماعيل يحس كأن التيار الخفى الذى يربطه بها باستمرار ، حتى لو غابت أو سافرت أو نامت فاتصاله بها دائما قائم وموجود . حين تجلس أو تحدث أبا السباع يحس فجأة وكأن التيار قد انقطع ولم تعد تشعر به ، ولكن شعوره هو بها يزداد إلى حد الجنون .. إلى حد أنه يمنع نفسه منعا من أن يمسك بعصا أبيه ويدفعها لتستقر فى عينيها أو فجأة يخلع كل ملابسه ويقف أمامها عاريا تماما لتدرك أنه موجود . والحياة كانت سهلة وعذبة ولذيذة يحب كل ما فيها .. يحب اجتماعهم حول الطعام بعد الجوع الشديد ، حيث يجلس فرحا بالطعام وباجتماعهم هو وأمه وأخته وأخيه الصغير ذى الأربعة الأعوام الذى لا يزال يتهته ليخرج الكلام ، وتعلق أمه بهم جميعا وبه على وجه خاص .. والشاى بالحليب فى الصباح ، وفسحة الخص والعصارى مع الترمس على البحر ، والجلسة على الحشيش فى قلب المنتزه .. ما أجملها ! حتى لو جاءت سيرة أبيه .. حين يتولى أمه وجوم يخاف معه أن تبكى .. ويتبارى الحاضرون فى تعداد صفاته حتى لكأنهم يتحدثون عن شيخ من أولياء الله .. وفى الحديث عن قوته وكأنه كان عنتر بن شداد .. والمرض اللعين الذى فتك به فى أسبوع .. ويقولون مات ..

أجل .. شيئا فشيئا بدأت الكلمة التى كان يأخذها على غير محمل محدد يتكون لها فى ذهنه معنى .. مات ، أغلق عينيه إلى الأبد ، واصفر وجهه وبرد ، ولفوه فى كفن ، ودفنوه .. لقد رأى هذا كله ولكن لم يبدأ يفهم معناه . مثله مثل

الهمس فى الظلام والحفيف وقولهم البركة فى برهم . إلا هناك حيث وقعت الدبة فى البير أشياء كانت مغطاة بطريقة لا يفهم لها معنى ، ثم بدأ يسقط عنها الغطاء ويصبح لها إن لم يكن معنى واضح فلا أقل من شيء خفى عميق مظلم كفوهة البئر التى سقطت فيها دبة ذلك الخنزير .. حتى غناء الأولاد والبنات كان فى تلك الليلة بلا معنى — هكذا أحس — رغم ما كانوا هم فيه من متعة كبيرة ، كان هو وحده يحس أن الأغنية بل حتى اللعب كله أصبح بلا معنى . شده صاحب ورشة الدوكو الذى يعمل عنده من أذنه ولعن أباه :

— ياد انت كبرت وبلغت ومابقيتش عيل .. مانتاش عاجبنى كده طول النهار موطى لى فى الأرض كده . إيه اللى كاسر عينك ياد ؟ أوع يكون تشومبه بيعلم عليك .

وفهم جيدا ما يريد أن يقوله الأسطى .. وأحس بلسعة نار تكويه وتجنه .

— ماتقولشى كده تانى يا أسطى .

لم يدر كيف جرؤ وقالها .

وصحيح أن وجهه قد تورم من الضرب بعدها باعتبار أنه رد على الأسطى الكبير وتلك جريمة لا تغتفر ، إلا أنه فوجىء بنفس الأسطى بعدما شبع من صفعه وركله يقول لأصحابه الذين يشربون الشيشة :

— إنما إيه رأيكم عجبنى .. رد على صحيح إنما عجبنى ، والنبى الواد ده ح يطلع أجدع من تشومبه .

وتشومبه المأخوذ من تشومبى هو الصبى الأول للأسطى ومساعده ، أكبر من إبراهيم فى السن وأغمق فى السمرة أكرت الشعر مفرطح الأنف غليظ الصوت على عكس أخيه ( لممبا ) .. فتشومبه لا هم له طول اليوم إلا تعذيبه

وصفعه وقوله :

ــ ابقى سلم على أمك ياد .

أول مرة قالها صفعه ، فضربه تشومبه علقة لا ينساها . إن أول عمل بالتأكيد سيفعله حين يكبر أن يقتل تشومبه .. ويقتل أول دبة يلقاها . والدبة بدت سخيفة جدا وهو يرددها مع الأولاد ولم يعد فى ترديدها ما يثير . وأصبح انحناؤه ليدخل تحت السرير أشد .. وكالكبار لم يعد ينام لحظة أن يضع رأسه على المخدة الطويلة التى بططت حتى أصبحت كلوح الخشب . والهمس أصبح يفرقه عن الحفيف . والدق لم يعد يستيقظ عليه ــ إنما قبله ــ من الأقدام الثقيلة وهى تزحف فى الطرق المظلمة كان يتنبه ويعرف أن القهوة أغلقت وإنها أقدام إسماعيل أبو السباع .. ولم يكن وحده الذى يتنبه فالسرير يزيق وتنسل ساقا أمه وتشخشخ غوايشها .. ثم الحفيف وفتحة الباب والهمسة الناعمة الصادرة عنها : مساء الخير ، حتى هى التى تبدأ بالتحية ! والحشرجة التى مهما بولغ فى جعلها همسة تظل دائما حشرجة بغير معنى ، ثم ، ثم تلتهب عيناه وكأنما تضيئان بعد هذا كل شىء مظلم فى الحجرة ، حتى وجهه الأسمر الذى تفردت ملامحه وتضخمت يضىء . كل شى يبدو واضحا من نور النهار ، حتى قدماها العاريتان يراهما ويرى أصابع إحداهما وهى تنكمش وتتفرطح تحت ثقلها وهى تصعد ، ثم تنسحب إلى فوق تاركة إياه يحيطه من كل جانب « داير » السرير ، كأنما ليطل عليه فى عالمه الصغير ويسخر منه .. وياسمين نائمة متقوقعة على نفسها ، فى بله « تريل » ، وأخوه الصغير ممدد بالعرض عند أقدامها يتنفس بصوت مسموع وكأنه رجل يغط .. هم فى البير والملائكة فى السماء .. والسماء سقفها من خشب تطل منه مرتبة تنبعج ، وما تحت السرير يغوص .. كل دقيقة يغوص . والسماء الخشبية

مهددة بالسقوط ، وقيام القيامة والجنة والنار .. ورأسه يوم القيامة منكس .. وحين يأتى تشومبه لصفعه على قفاه سيرعد الصوت العالى المدوى صوت الله ارفع إيدك . وتنشل اليد . أليس باستطاعة القيامة أن تقوم الآن ؟ ويرعد ذلك الصوت المدوى : ارفع إيدك . فيصاب الخنزير بالشلل ، وينحشر صوت أمه فى صدرها إلى الأبد ويكف تماما عن أن يتحول إلى همس ، إلى ذلك الهمس الذى كان يحس أنها به تصبح غريبة عليه تماما ، امرأة أخرى ملامحها مختلفة ، لا يعرفها ولم يرها فى حياته . امرأة يخجل منها ، وكلما رأى همسها يخرج مريبا منخفضا شعر وكأنها تخرج من جسدها سرا دفينا كان خافيا عليه ، سرا كالعورة لا بد له من غطاء . وكلما خفضته كان يتعرى أكثر حتى لا يكفى كل ما لديهم من أغطية وبطاطين لستر همسها .. اسمع ! أهذا صوت المرأة التى ولدته ، أمه ؟ بالضبط إنه يتذكر . أجل .. كيف فاته أن يتذكر هذا أيام كان فى سن ياسمين وربما أصغر ؟ وصحا وفتح فمه يريد أن يصرخ ولكنه سمع كلاما أسكته . فقد ميز صوت أبيه فى الحال ، وكان أبوه يهمس .. كان مع أمه فوق السماء الخشبية . وانتهى همسهما إلى ضحك ، ضحك طويل لا ينتهى دفعه لأن يبتسم وقد بدأ يحس أنه سعيد لمجرد إحساسه أن أبويه يضحكان ، نسى تماما أن البول يؤلمه وأنه من لحظات كان يريد أن يصرخ .. دوت خبطة أعقبها عراك ضاحك فوق السرير اهتز بعنف له ، ثم صرخة مكتومة ، ثم عود إلى عراك انتظر له نهاية بلا جدوى .. واستغرب أن يكون أبوه المهاب المقدس الذى يحبه إلى حد لا يستطيع معه مفارقته طرفا فى اللعبة ، ولأمر ما استشاط غضبا حين أحس أن الطرف الآخر أمه . وفتح فمه يريد البكاء غير أن البكاء بدأ له سخيفا .. ليس له فيه ذرة رغبة واحدة . فرغم استنكاره كان إحساسه الأكبر الطاغى أنه فى أمان

حنون حبيب وأنه معهما ، وكأنه الطرف الثالث فى اللعبة ، كل الناقص أن يشعرهما بوجوده .. وبكى ليشعرهما . ولدهشته تصاعدت الضحكات من فوق لبكائه من أمه وأبيه معا ، ضحكات لا رهبة فيها ولا قداسة جعلته يستمر فى البكاء بدافع العناد وحده ، ولكنه حين وجد الضحك مستمرا وجد نفسه هو الآخر يبدأ فجأة يضحك ، فإذا بالضحك الأعلى يتحول إلى قهقهات اهتز لها السرير بشدة .. نفس السرير الذى ترقد عليه أمه الآن ضعيفة مختلفة تماما عن قوتها الصارمة فى النهار وملامحها الجادة وحديثها المملوء بالوعيد .. ضعيفة تتألم .. وتتألم فى ضعف مقيت وكأنها بتألمها تطلب مزيدا من الضعف وتغرى الخنزير بمزيد من الوحشية ، إذ كان قد تحول إلى وحش وحشرجة همساته أصبحت خوارا عميقا كخوار ثور مذبوح . إنه لم يعد صغيرا فهو يعرف . لا يعرف بالضبط فهو ليس كبيرا تماما ، ولكن هناك أشياء غريبة لا يستطيع حتى لو أراد أن يتصورها تدور فوق رأسه فى السماء عند فوهة البئر . إن باستطاعته أن يصفعهما معا ويخرج بصورة كاملة ولكنه يبقيها لإرادته منفردة ، مجرد أصوات لا رابط بينها .. مجرد ضعف ووحشية ، وهمس فى ناحية وتهديد بسقوط « الملة » فى ناحية أخرى ، ومع هذا تفور دماؤه مثلما كل مرة تفور .. والعرق الغزير يكسوه ، وكأنما حتى لو أردنا لا نستطيع أن نوقف أجزاء فى عقولنا عن أن تعمل وتربط وتعى ، ورعب شديد وكأنما من فوقه شيطانان يجهران بالعصيان ويفعلان هذا فى المساء أمام كل الناس ودون اكتراث لأحد ودون خوف .. خواره كخوار واحد من أكلة لحوم البشر ولو نطق لنهش لحمه قبل عظامه . أمه نمرة على فمها دم انتهت لتوها من التهام أخيه الصغير وتتنمر فى طلب المزيد والتوحش مجنون مكشوف حاد الأنياب كعراك الكلاب المسعورة ، وثقلهما

شديد ، و« الملة » تغوص تحت الثقل وتجثم فوق صدره ، وجميعها تدكه فى ضغطات بطيئة تدفع ببطء وتهوى ببطء ، تدكه وتمنعه أن يتنفس .. إنه لا يستطيع الاحتمال ، إنه سيموت لا من الضغط وإنما من الجنون .. إن مخه يتكهرب ويسخن ويبرد ويطلق شرارات .. والرعب من الفجر يشل صوته عن أن يصرخ ويمسك بزمام عقله عن أن يفقد السيطرة ، وينفض هذا كله عن نفسه وينفجر غاضبا صارخا وينقض عليهما بالحذاء البنى القديم يمزقهما ، أو بيد « الهون » يدشدش رأسيهما .. ولكنه يدرك — ومهما بلغت درجات انفعاله — أنه غير قادر على الإتيان بشىء من هذا .. كبرت وبلغت يا برهم حتى أصبحت كالدبة ، وأذنك تسمع وعيناك كالأسياخ المحمية تخترق « الملة » وتكاد ترى ما فوقها .. وأنت صغير لم تكن تعرف .. كنت فقط ترى .. الآن ترى وتعرف .. لو فقط أمكن إلغاء كل ما فات والبداية من جديد ، من الليلة مثلا أو من الغد وكأنه ما سمع قبلا أو رأى ، وكأنه أول مرة يعرف ويفاجأ بالمعرفة ليستطيع أن يتصرف بمثل ما تمليه عليه المفاجأة ! ولكن العجز الذى يصيبه يعرف سببه . العجز سببه أنها ليست المرة الأولى .. وقبل أن تكون الأولى كان هناك إحساس .. كان غموض وكان تدريج ، الهمس يتحول بعد حين فى وعيه إلى كلام مفهوم ، والكلام إلى أصوات ، والأصوات يميزها ويعرف صوتها من صوته ، ومع كل « حيل » طول يطلع له فى فخذه كان يكتشف شيئا فشيئا ذاك الغموض . وببطء شديد لا مجال معه للثورة ، ولا فرصة للمواجهة ، بحيث حين ( عرف ) و( وعى ) لم يعرف أو يع شيئا جديدا ، وإنما جاء كالخبر القديم بلا حرارة ، كالشبح البعيد الذى خمنت من زمن قبل أن تقف وجهك فى وجهه من يكون .

حتى إشعارهما بوجوده ما كان يجرؤ عليه ، فقد كان يشعر أباه وأمه لأنه كان مطمئنا آمنا . أما هذان فمن يكونان غير غريبين عليه تماما .. الرجل خنزير والمرأة دبة ، وهما على سطح الدنيا فى السماء ، وهو وإخوته مثلهم مثل أبيه يضمه هذا القبر ذو الداير الأبيض . أيبكى ؟ ويصبح حتى فى نظر نفسه وكأنه « ملعبة » تشومبه كما يقول الأسطى ؟ أيصرخ ويلم الناس ؟ باستطاعته أن يفعل ، باستطاعته أن يقتلها حتى بعد ما يذهب الرجل الغريب .. ولكن المشكلة أنه بهذه الفعلة سيفقد ذلك الخيط الواهى الذى أصبح يربطه بأمه فرغم كل شيء لا تزال أمه ، ولا يزال حيا لأن له أما ، ولا يستطيع أن يتصور الحياة بغيرها بله أن يتصور أنه هو الذى قتلها وأفقدها الحياة .. هو حى لأن له أما ولأنها — هذه الأم بالذات — ذلك الشيء الموجود رغم وهنه لو فقده لفقد الحياة .. فهى الآن وهى مع الرجل الغريب مقطوعة الصلة به يحس إحساسا عميقا شاملا أنه ضائع إلى حد الموت ، لا أحد فى الدنيا يخصه ولا يخص هو أحدا ، ما يبقيه حيا هو أمله أن تنتهى تلك اللحظة العارضة ليعود يربطه بها ذلك الخيط الواهى . ولوصرخ ، ولو عرفت أنه عرف لنبذته إلى الأبد ، وكف التيار النابع منها ليحييه عن السريان ، وانتهت أمه تماما ولم يعد فيها غير المرأة الأخرى التى ترتدى الفستان الأسود فوق القميص الحريرى الشفاف ، والتى تشقى طول اليوم كى تجلب من عملها كدلالة وسمسارة وأشياء أخرى كثيرة الطعام .. بل إنه ما كان يفرح بالطعام لأنه طعام ولكن لأنها هى جالبته .. هى التى تعبت وأحضرته وتعبها هذا فى إحضاره لا بد سببه أنها لا تزال تحبهم وتحبه .. الطعام رمز الحب هو ما كان يفرحه .. وأن تموت ، أن تنفضح ، أن يواجهها لمات قبل أن يحدث هذا ، فحاجته إليها أقوى ألف مرة من حاجتها إليهم ، بل هو لا يعتقد منذ أن دخل هذا

الرجل الغريب حياتهم أنها أصبحت بالمرة فى حاجة إليهم .. حياته وحياتهم لا تزال معلقة بأمومتها لا تنفصل .. لهذا لا بد أن تظل تعيش وتظل حية ، ويظل ساكنا وتظل ، لتظل حية فى السماء .. أو فوق الفراش ، لتظل تقابل عشرات الرجال وتشتغل معهم بأكل العيش وتعولهم وتحدثه بصوت ملىء حتى بالوعيد .. لتظل تختار من بين الرجال ذلك الرجل الغريب لتقول له — وهى التى تبدؤه بصوت هامس مبحوح : ساالخير . وليسمع هو ، وليكن عليه أن يقضى جزءا كبيرا من الليل يسمع ، والأصوات تأتيه من فوق سمائه الخشبية ليس فيها ضحك أو سعادة ، وإنما فيها ضعف أكثر فهو حزين .. وليس فيها صوت أبيه القريب الحنون وإنما لهاث خنزير وفحيح دبة سقطت فى البئر التى كانت تخصه وحده وخلقت له ، وضحك ذات يوم حين احتمله أبوه .. حضن عن عمد تفتحه وبإرادة منها تضم به ذلك الرجل المكتنز ، وبلقائهما الشيطانى المتوحش يغوص كونه الصغير تحت السرير ويغوص ، وهو قد كبر ومن صغره وهو يسمع .. الآن أصبح يسمع ويجن ، وبحكمة كبيرة يصنع فى النهاية كما تعود أن يصنع ، ويسكت .. ومع هذا لا تريد القيامة أن تقوم ليعلو ذلك الصوت الراعد : ارفع إيدك . فيصاب الخنزير الغريب بالشلل وتموت المرأة المبحوحة الهمس .. وتعود له الأم . صرخة تتصاعد من تحت سماء خشبية محدودة إلى المدينة النائمة والأرض الكبيرة والكون والسماء التى لا نهاية لها .. ولأن القيامة لا تقوم فهو يستيقظ كل صباح وقد أصيب بخيبة الأمل ، وكل يوم يرمقها فى خروجه ويحس أن الخيط يدق والأم تنكمش .. وسنوات قد مضت على موت أبيه والمرأة ذات الهمس تطغى ، فيذهب إلى الورشة منكس الرأس ليرتفع كف تشومبه ويهوى بها على قفاه ، قفا صبى صغير أسمر قائلا :

— والله كبرت وبلغت وبقيت زى الدبة .. والدبة وقعت فى البير ..

مارس ١٩٦٥

# الأورطى

المهم ليس أنه كان جريا ، المهم أنه كان فى أكثر من اتجاه يكاد يكون فى كل اتجاه لكأنه يوم الجرى الأكبر ، نوع غريب خاص من الجرى فهو ليس جرى الخائف أو المستعجل أو من يسرع لإنقاذ .. جرى تائه وكأن صاحبه يجرى ليبحث عن بقعة يبدأ منها الجرى والإسراع ، ولهذا فلا أحد يعرف هدف الآخر أو غايته ، إنما الكل فى حالة ترقب خائف أن يعثر أيهم على بدايته التى ربما حددت لهم البداية ، ولهذا أيضا كنت ترى الشخص يجرى كالمجنون .. وكالمجنون أيضا يحاول عبثا أن يراقب خطو الآخرين وجريهم ، بحيث ما أن يبدو أحدهم يتردد فتقل سرعته أو ينطلق أكثر فتزداد سرعته ويبدو أنه قارب العثور على غايته ، حتى يندفع العشرات إلى حيث يكون على أمل أن يصل الواحد منهم أولا .. ليكون أول من ينطلق حتى يتحدد الهدف . وحين يصابون بخيبة الأمل ويجدون أن الذى أسرعوا إليه أكثر منهم حيرة ، يندفعون إلى متلكئ أو مسرع آخر .. عملية كانت البقعة فيها تبدو إذا نظرت إليها من عل أو من بعيد وكأنما تنبض نبضات تجمع مفاجئ يعقبه التفرق .. نبض يحدث فى أكثر من مكان فى نفس الوقت حتى ليبدو الميدان وكأنما فرش بقشرة ، لولا تلك النبضات العشوائية الحادثة هنا وهناك والدالة وحدها على الحياة لظننتها قشرة صخر ، أو لظننت الآدميين المتجمعين كتل ركام مختلف الألوان .

ولا أحد يعرف إن كان هناك ضرب أم لا . أنا شخصيا أصبت بأكثر من

ضربة . ضربة قاصمة موجعة وكان من المستحيل تحديد الضارب ، فأنت بلا جار دائم .. والحركة الدائبة الجارية لا تتيح لك حتى مجرد التطلع إلى العشرات والمئات الذين تمر بهم أو يمرون بك ، إنما بالتأكيد كان هناك ضرب وكانت هناك اصطدامات لا وقت حتى للاعتذار عنها . وكان أناس يسقطون ، فجأة تتصاعد صرخة يعقبها أنين يظل يخفت كرنين الجرس المعلق حتى تمحوه صرخة أخرى ، ولا أحد يتوقف ليرى النهاية ما دمت لست أنا الصارخ ، ولا أزال قويا سليما لم أسقط بعد فما معنى الوقوف ؟ وشيئا فشيئا بدأت أدرك أن الحركة كلها ليست تلقائية وأن هناك حركة أخرى خفية من الصعب شبه المستحيل إدراكها ، حركة طاردة إلى الخارج . وكان الميدان يتمدد وينفجر انفجارا بطيئا خفيا منتظما طاردا الوسطانيين ليصبحوا أقرب إلى المحيط وإلى الخارج ، وإلى الشوارع الكثيرة الصابة فى الميدان والآخذة منه .. حركة لولاها ما كان باستطاعة قوة فى الوجود أن تنتشلنى من حيث كنت إلى حيث وجدت مجموعة من الناس كنت أجدها تجرى بلا سبب آخر سوى الاستمرار اللاإرادى لما كنا نفعله فى الميدان الكبير ، استمرار لا نستطيع حتى ولو أردنا إيقافه . وما خفى كان أعظم ، ومن أين لى أن أدرك أنى فى اللحظة التالية سألتفت إلى جارى .. أول جار أستطيع أن ألمحه وأحدق فى ملامحه فأجده لدهشتى الشديدة ولهولى ، عبده . وكان إحساسى الطاغى التالى أن النقود معه وأنه لا بد يخفيها فى مكان ما معه . وكدت أموت فرحا وأنا ، بشغف وكأنما عمره ألف عام ، وبغيظ فالغاز الخانق القاتل الذى يتشبع به الجسد ولا نحس به إلا هناك .. قبل الموت بلحظة حين تعى لأول ولآخر مرة أنه خنقك وقتلك . أجل الغيظ أبشع أنواع الغيظ حين تستأمن أو تثق ثم ترى الخديعة عينى عينك ودون أى اكتراث ،

حين ينسل الشخص الذى تعرف وأنت متأكد تماما أنه فى يدك متى أردته وأنى أردته ، فجأة تجده أمامك يذوب ويختفى وتلتهب غيظا وغضبا ومجهودا ولا تستطيع منعه . عبده .. بيدى الاثنتين أطبقت على رقبته . كل خوفى أن يذوب مرة أخرى ويختفى .. وكل ضيقى أنى لا أستطيع التهامه .. الوحش فينا لا يزال هناك ، وحين نتشاجر لا نعض كى نؤلم الخصم إنما نعضه لأننا فعلا نريد — كالأجداد الوحوش — التهامه ، الأجداد الذين كانوا يهاجمون الخصم ويلتهمونه غيظا كى يستطيعوا إخفاءه وإخفاء وجوده داخل وجودهم ، وبناء حياتهم على أساس أن تطعم خلاياهم على خلايا العدو وتستمد بناءها ، نحن الآدميين الذى نعض فقط عن عجز ونحقد ولا نستطيع التنفيس عن حقدنا بالطريقة الطبيعية فيرتد حقدنا كالأنياب المسمومة إلى داخلنا ينهشنا نحن ويقوضنا ، وهذا بالضبط ما كنت أحسه وأنا أطبق على عبده وأتمنى لو كان باستطاعة عواطفى أن تنطلق فتنهشه وتدشدشه وتمضغه ، وأحس بأنيابى تلوك لحمه وأجزاءه وتشفى غليلها وتطحنه بكل ما تملك من قسوة وشراهة .. وربما الأصل فى الطعام أن يأكله الإنسان بناء على غيظ وبنية إخفائه عن الوجود ، واحتوائه تماما والقضاء عليه ، ولهذا يستفيد الوحش من طعامه الفائدة القصوى بينما يمرض الإنسان الآن بطعامه ويشقى .

ولكن ، حتى كطعام كان عبده لا يدفع إلا للاشمئزاز وقتل الرغبة ، فقد كان نحيفا غلبان ما حفلت عيناه مرة بنظرة تحد ولا واجه أحدا مرة بنية إثبات الوجود أو الدفاع عنه . كان طيبا ذلك النوع الباهت السلبى من الطيبة ، مصابا بفتق مزدوج ويغنى فى خلوته مواويل عذبة وكأنه أتى بحل غريب لم يعثر له أبدا على وطن ، وإذا فاض به الحال بكى .. امتلأت عيناه فجأة بدموع لا يصاحبها أى

احمرار ، إنما يتجمع الاحمرار فى أنفه فيبدو وكأنما تورم وحفل بالإفراز . ويصعب عليك — ليس فقط لأنه عبده — وإنما لأنه وهو الرجل كالأطفال والنساء يبكى ، بكاء لا ليونة أو طفولة فيه ولا يستدر العطف ، إنما الكارثة أنه بكاء رجال يستدر الاشمئزاز . حرامى قروش لا يأخذها إلا مضطرا وبأقل مقدار ، وإذا ضبطته ارتبك وتلعثم وأقسم أيمانات كاذبة ! وحذار أن تشدد عليه وإلا بكى وأصابك باشمئزاز يستمر معك اليوم كله ، وربما لبضعة أيام . ثلاثة أيام بأكملها بلياليها وبساعاتها الطويلة ومغاربها وعصاريها وأنا أبحث عنك يا عبده ، أرفع أرصفة مصر وأقلبها ، واقتحم البيوت ، وأوصى وأواعد وأستجير ، ولا أترك شارعا أو زقاقا أو حارة ، وحين يهدنى التعب أنام وأستيقظ على روحى تكاد تطلع بالغيظ والحنق يأسا من العثور عليك ، وحلمى وكابوسى وألم يقظتى ومنامى أن ألتفت مرة لأجدك يا عبده . أين كنت يا عبده وأين أخفيت النقود ؟ والغريب المذهل ما قاله .. قال إنه ما أن غادر المنزل يومها حتى أمسكته فرقة من التى تبحث عن المرضى لتأخذهم عنوة إلى المستشفيات ( تماما كفرق الشفخانات التى تأخذ الحيوانات المريضة بالقوة ! ) وإنهم أخذوه معهم إلى المستشفى مشتبهين فى أمره ، وهناك كشف عليه الباشحكيم بنفسه وقرر أنه مريض بمرض خطر يهدد أن يعدى المصريين جميعا به ، وأن لا علاج له إلا بعملية جراحية يجرونها له فى الحال ويقطعون بها الأورطى له ، ورقد لثلاثة أيام ثم أخرجوه اليوم فقط بعدما منحوه عكازا ليستعين به فى المسير ، أما النقود فمن لحظة أن دخل المستشفى وهو لا يدرى ما حل بها .

وكان مفروضا أن يحكى عبده قصة ما يبرر بها اختفاءه واختفاء النقود . أما أن يحكى قصة كهذه لا يصدقها طفل أو معتوه ، أما أن تكون هناك فرق تبحث

عن الآدميين المشتبه فى مرضهم وتأخذهم بالقوة كى يعالجوا وتعاملهم هذه المعاملة الحيوانية البشعة ، أما أن يكون هناك مرض من الأمراض علاجه قطع الأورطى ، أما أن يقطع الأورطى وهو الشريان الرئيسى للجسم البشرى الذى يأخذ الدم من القلب ويوزعه على جميع أنحاء الجسد والذى فى سمك العصا التخينة بحيث أنه لو خدش يحدث من جرائه نزيف يقضى على صاحبه فى الحال ، فما بالك أن يقطع وأن يعيش عبده بعد قطعه .. ليس هذا فقط بل أن يكون باستطاعته أن يسير ولو على عكاز ، وأكثر من هذا يجرى مثلما كنا منذ دقائق نجرى . أما أن يكذب عبده هكذا على كذبا واضحا صفيقا لا يحاول حتى أن يداريه أو يبحث عن قصة أخرى أكثر حبكة وقابلية للتصديق ، فهو ما أضاع منى كل سعادتى بالعثور عليه ، وما جعلنى أحس بتعب ساحق أهوج يعترينى لإحساسى أنه يسخر منى بقصته تلك سخرية تفوق الوصف ، غضب لا حدود لقسوته ولا حدود لما يدفعك إليه ، ولم أكن وحدى .. كانت الجماعة التى تجرى معى تشهد هذا كله وتسمعه وقد آب جريها إلى سير بطىء ، بل بدأ أفراد آخرون ينضمون إلينا ويشعرون تجاه عبده وقصته بنفس ما أشعر ، وكلنا بلا استثناء قد أصبح أهم شيء لدينا أن النقود معه وأنه لا بد يخفيها فى مكان ما من جسده ، فعبده لا يملك مكانا آخر فى الدنيا يستطيع أن يخفى فيه شيئا ، وليس مهما القصة — أى قصة يحكيها — إنما المهم هو العثور على النقود والعثور عليها أمامه « عينى عينك » وفضحه فضيحة علنية أمام الناس كلهم وعلى مرأى ومسمع من الجميع ، وهكذا تصاعدت الأصوات تصرخ .. فتشه .. فتشه .. ولم أكن فى حاجة للصرخات لأمد يدى أنزع عنه جلبابه البلدى الباهت الذى لا يملك سواه ، غير أنى فوجئت أن الجلباب ملتصق بجسده لا يمكن خلعه عنه وهذا

غريب ، فعبده كان دائما « يلق » فى جلبابه الواسع فكيف به الآن لا يمكن انتزاعه وكأنه انتفخ فجأة أو سمن فى ثلاثة أيام سمنة غير معقولة . وفى البحث عن حل لخلع الجلباب عنه اشترك الجميع فى الاقتراحات وقد أصبح حماسهم للنيل من عبده يطغى على حماسى أنا الضحية ، حماس كان يعمنا فى صمت ، وبلا اتفاق سافر ، وبكل جهد وإصرار وبأعصاب منفعلة ، وبكثير من الاستمتاع ، وكأنما نحن متأكدون تماما أننا أخيرا قد عثرنا على بغيتنا ، على نقطة كالتى كنا نجرى فى الميدان نبحث عنها لنبدأ منها الجرى .. على مذنب يحمل الذنب الذى ارتكبه معه ، ولا بد أن ينال جزاءه ، ونمتع كل ما فينا من خير بإيقاع القصاص به وتطبيق العدالة ، ونمتع كل ما فينا من شر يجعلنا نطبق العدالة بأيدينا وبأنفسنا وبالشر حرا طليقا لديه جواز المرور .. نوالى إحداث الضرر تحت شعار العقاب .

ولم تكن هناك طريقة لخلع الجلباب عنه إلا بسلخه كما يسلخ جلد الأرنب عنه ، ولكى نسلخ الجلباب لا بد أن يكون معلقا .. وأصبحت المشكلة أين وكيف نعلقه ؟ وتصاعد اقتراح .. والتفتنا فوجدنا الجزار قريبا ، وتحركت المجموعة وعبده فى وسطها .. لا تزال يدى مستميتة عليه إلى حيث دكان الجزار ، وتولى أربعة رفع عبده بينما أخذ الجزار الشاب البدين على عاتقه مهمة تعليقه فى الخطاف الذى تعلق عليه الذبائح من « قبة » صديريه وملابسه الداخلية . وهكذا علق عبده فى الخطاف وأصبح مرتفعا هناك لا حول له ولا قوة ، مثله مثل الذبائح والخرفان المسلوخة المعلقة على بقية الخطاطيف . وامتدت أكثر من يد ترفع ذيل الجلباب إلى أعلى وتسلخه عنه وهو معلق صامت لا ينطق بحرف . وما كاد الجلباب يخلع عنه حتى أدركنا السبب الذى جعله

يلتصق بجسده هذا الالتصاق الشديد ، فحول بطنه وصدره كانت تلتف أشرطة بيضاء كثيرة وكأنه فعلا قد أجرى عملية وتلك أربطتها . ولكنى أدركت على الفور هدفه الخبيث من هذه الأربطة الكثيرة ، فلا بد أنه أكثر منها ليستطيع إخفاء النقود فى أية طية من طياتها دون أن يستطيع أحد الشك أو التنبؤ بمكانها . وكان لا بد أولا — ولمجرد الروتين — فحص محفظته ، ومد الجزار يده السمينة المدربة وأزاح طيات الشريط قليلا وأخرج المحفظة من جيب صديريه ، وكانت أول مرة أرى فيها محفظة عبده ولم أكن أتصور أنها بهذه الضخامة ، فقد كانت أضخم محفظة ممكن أن تراها فى حياتك .. وقد توليت بنفسى تفتيشها وإفراغ محتوياتها ، وكما توقعنا لم يكن بها غير خمسة قروش فكة أحدها معضوض صدئ لا يصلح للتداول . ومرة أخرى دفع الجزار البدين يده فى جيب الصديرى نفسه وكالمتوقع لم تخرج بشىء .. كلها إجراءات شكلية فقد كنا جميعا ندرك أن النقود هناك مخبأة لا بد فى طية من طيات الشريط . وبذلك التحفز النهم للفضيحة ، ولإدراكنا إننا حالا وعينى عينك سنضع يدنا على ذنب المذنب ، وأمامه سنخرج من جسده نفسه جسم الجريمة ، وننتشى النشوة الكبرى ونحن نستعد لنرى وجهه لحظتئذ ونسمع ما يقوله ، بذلك التحفز امتدت يدى ويد الجزار نفك عنه الشريط غير آبهين لصرخاته واستغاثاته وقوله إن فك الشريط عنه معناه موته ، إذ الشريط هو الذى يمسك الأورطى المقطوع فى مكانه . صرخات لم تفعل أكثر من أنها أثارت الضحكات والتعليقات الساخرة ، وحفزتنا نحن القائمين بفك الشريط إلى اللحظة القصوى لحظة اكتشاف النقود . وفككنا بعض الأشرطة وصراخ عبده قد آب إلى سكوت يائس بينما امتلأت عيناه بالماء الدامع الذى لا يصاحبه أى احمرار . وحتى لو صدقناه واعتبرنا أنهم عملوا له عملية ما فمن الواضح أنه

يكذب ، فالأشرطة كانت بيضاء نظيفة ليست فيها بقعة دم واحدة ولا آثار جرح ، ولهذا مضينا نفك بحرص مخافة أن تسقط منا النقود لدى اللفة التالية ، فقد كنا جميعا واقفين ومشاركين وكأنما عبده هو الآخر ينتظر ظهور النقود لدى اللفة التالية . وكنت ألف من ناحية وأسلم الشريط إلى الجزار البدين ليفكه من ناحيته ويعود يسلمنى إياه ، ويبدو أننا كنا قد استغرقنا فى العملية إلى درجة أنى مددت يدى أتسلم منه الشريط مرة فلم أجده إذ كان قد انتهى ، وقبل أن أنظر إلى عبده أحسست بشعور غريب ما يعترى الواقفين ، وحين اتجهت ببصرى إليهم وجدتهم جميعا وقد خيم عليهم صمت كامل مريب بينما عيونهم كلها مصوبة إلى جسد عبده جامدة لا تطرف وكأنها عيون موتى . ونظرت إلى حيث ينظرون .. كان عبده عاريا تماما وكان هناك جرح طويل جدا يمتد من صدره إلى آخر بطنه ، وكان صدره وبطنه فارغين وكأنما انتزعت منهما كل ما تحتويه من أجهزة ، وكان الأورطى يتدلى من صدره من مكان القلب كمزمار غاب سميك طويلا وشاحبا ومقطوعا يتأرجح داخل بطنه كالبندول .

مايو ١٩٦٥

# صاحب مصر

فكرت أن أجعل للرجل زوجة جميلة صغيرة لتلائم سنه الكبيرة . فكرت أن أجعل الجميلة بنته ، ولكن الزوجة مغرية أكثر والقارئ الملول لا بد أن يسيل لعابه تتبعا للزوجة الصغيرة الحلوة ، أملا فى حدوث المتعة الكبرى بشم رائحة الخيانة أو التلظى نشوة وقلقا على نار الشك فى وجودها ..

فكرت فى أشياء كثيرة ، وتصورت وكأننى الكاتب المحترف كل الآفاق المثيرة المجهولة التى يمكننى أن أقود إليها القارئ الهاوى النهم ، كى أجد تفسيرا لحماس صميدة للرجل العجوز .. وصميدة ليس اسمه وأنا لا أعرف اسمه ، ولكنى لا بد إذا سميته أن أختار لقبا كصميدة فيه حرف صاد مذكر الموسيقى جهيرها ليعبر عن شخصه .. ولا بد أن ارتباكا قليلا قد حدث وأن الحيرة تملكتكم عن أى الرجلين أتحدث .. الواقع كان هناك رجلان كل منهما يستحق الحديث ، ولكن الأنسب أن نتجاوز عن كليهما معا لنتحدث عن المشهد .. فقد كان هناك رجلان ومشهد ، والمشهد ليس بسيطا أبدا رغم خلوه التام من الفواجع والكوارث وكل مسببات التوتر ، ولكى نبدأ علينا أن نتصور مكانا معزولا تماما عن العالم كأن الدنيا بكل غموضها ومجهولها تنتهى عنده ، ولكننا لا بد أن نعتقد أنها أبدا لا تنتهى عنده ، فالطريق الذى يقطعه ممتدا بعد بقعتنا مثلما يظل ممتدا قبلها إلى ما لا نهاية البصر . بالاختصار لنتصور طريقا من طرقنا المسفلتة الطويلة يمر بمساحة شاسعة من الأرض غير الزراعية ، أو المطروقة ،

أو تعرضت فى عمرها الملايينى الكثير للمسة من يد الإنسان .. صحراء أو برارى أو جبل وعر على امتداد الأصبع الخنصر لبحرنا الأحمر . إن طريقا كهذا يظل كالخط المستقيم بلا فائدة ، كالرجل المستقيم بلا مبدأ — وبمجرد المحاكاة والتقليد — لا معنى ولا قيمة لاستقامته حتى يحدث له حادث ، ينتهى مثلا أو يلتوى أو بالذات يلتقى بطريق غيره ، أو يتقاطع وهنا فقط عند التقاطع واللقاء يصبح للطريق المستقيم الممتد معنى ، إذ يصبح التقاطع وكأنه الإثبات لنظرية كانت قبله فرضا ، ووصولا كان طوال الطريق مجرد حلم كحلم الجوعان بالخبز .

لنتصور حادثا كهذا وقع لطريقنا الذى اخترناه ممتدا بلا معنى فى أرض متسعة بلا مفهوم ، ولنكن أيضا على ثقة أننا لن نكون أول المتصورين ، فقبلنا بكثير سنجد أن الحكومة باعتبارها المسئولة عن الأرض والطريق وكل الأشياء ذات المعانى والمعدومة المعنى قد تصورته وأدركت أهمية هذه الحقيقة الفلسفية أو الصوفية المحضة مع أنه ليس من عادة حكومة فى العالم أن تعير أمثال هذه الحقائق التى ينقسم عندها البشر وأحدثت ولا تزال تحدث أعظم الهزات والمعارك والانتصارات الإنسانية ، تعيرها أى التفات ، ولكنها بالسليقة من زمن لا بد أدركتها وبادرت فأقامت عند هذا التقاطع « كشكا » ، وقالت لعسكرى كن داخل الكشك فكان ، وهكذا انحسرت كل المعانى الكلية المهولة عن التقاء الطريق بالطريق ، وتقاطع الطريق مع الطريق ، وكما يضيق « القمع » ويتدبب ، ضاع المعنى وانكمش ، واتخذ بالكشك والعسكرى فى الحال مفهوما واضحا خاصا ، بل حتى الأرض نفسها تلك التى كانت من أمتار قليلة مستمتعة بلا جدواها ولا أهميتها وبحريتها أن تمتد إذا أرادت ، وتتجبر وتتجبل إذا أرادت وشاءت أن تمتد ، وتجن وتطلق شعورها وبراريها ولحاها كلما عن لها أن تصنع

ذلك ، أصبح عليها منذ الآن أن تدير رأسها وأن تعقل وتخفى عورتها ، ومن الكرة الأرضية الهائلة والكون والطبيعة تنسلخ ، وتتخذ أسماء وتنتهى إلى شعب محدد وإلى جزء من أرض ذلك الشعب .. محافظة أو مركزا تئول ، وكما يعطى العسكرى والكشك للأرض والطريق هذا المعنى المحدد الخاص ، يرتد العطاء ويصبحان ، أو على الأقل يصبح العسكرى ليس مجرد أى عسكرى فى أى كشك ، ولكنه فى ذلك الجزء المقطوع عن العالم المعزول يصبح المثل الحى للنظام العام الذى أخضع الأرض وحدها وسماها وامتلكها ، ولكافة القوانين التى ابتكرتها عقول من أصبحت تمت لهم هذه الفرس الوحشية « الأرض » وراكبها الذى استأنسها .. ذلك « الطريق » .

فى ذلك الوقت — ولنجعله بعد الظهر بقليل — وقد انتهى العسكرى من تناول غدائه ، بحيث يمكننا أن نقدم عليه بلا حرج ونجلس إليه على أمل أن نتحدث ، وحتى قبل أن يدور أى حديث بمجرد الجلوس سندرك أن البقعة قد تكون معزولة ومهجورة بالنسبة للآدميين وللراجلين ، ولكنها أبدا ليست كذلك بالنسبة للعربات . فما تكاد تمضى دقيقة حتى تكون عربة قد أقبلت .. بل أحيانا يتراكم لدى الكشك أكثر من عربة ، كل ما فى الأمر أنها فى الخلاء الواسع لا تبدو للعيان .. قلما تصادفك عربة إذا هى نقطة لا تظهر إلا عند الكشك ، من الخلاء الواسع الشفاف تظهر فجأة كأن دخانا كان يخفيها باتساعه وشفافيته ، وإلى الخلاء الواسع تعود إلى الاختفاء بعد اجتياز التقاطع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وحتما لا بد نفاجأ قبل أن نبدأ نعير العسكرى نفسه أى التفات ، وإنما ونحن مشغولون بتأمل المكان الفريد الغريب ، ومتابعة غير قليل من الأفكار التى

يولدها بالضرورة وجودنا لأول مرة فى مكان كذلك ، حتما لا بد ، حتما لا بد نفاجأ حين يقبل رجل عجوز قصير القامة أول ما يلفت النظر إليه جبهته السمراء البارزة المحدودبة ، ومقدم رأسه الخفيف الشعر الأشيب .. ينحنى على المنضدة الموضوعة أمام العسكرى ليستطيع أن يصل إلى حافتها الملاصقة له ، ثم يضع للمفاجأة كوب شاى متوسط الحجم رخيص الزجاج ، وإن بدا الشاى نفسه جيد الصنع عنبرى اللون محمرا تماما كما يحبه أنصاف الكييفة ، ونفاجأ أكثر حين نجد أن العسكرى نفسه لم يفاجأ بما حدث وكأنه كان يتوقعه وكأنما هى عادة ، وحتى إذا كنت متوسط الذكاء فلن تأخذ وقتا طويلا لكى تدرك أن الرجل العجوز صاحب ما اصطلحنا على تسميته بالغرزة أو القهوة الصغيرة المتنقلة ، وإنه يحط رحاله تحت شجرة على الناحية الأخرى من الطريق ، وأنه لا بد قد لاحظ أن العسكرى قد انتهى من تناول غذائه فأحضر له كوب الشاى .. كما قلت لا حوادث هناك ولا شىء عادى .. من الطبيعى جدا أن توجد قريبا من هذا التقاطع غرزة صاحبها رجل عجوز أو مريض وأن يتعامل العسكرى معه ، وأن يحضر له الشاى وأن يقدمه فى أدب . ولكن أشياء غير عادية بدأت تحدث منها مثلا أن يدفع العسكرى يده فى جيب بنطلونه الأمامى ( فجيوب بنطلونات العساكر مركبة إلى الأمام ولا أحد يعرف لم ) ويخرج قرشا من جيبه ويعطيه للرجل العجوز قائلا : خذ قبل ما انسى . حادثة لا شك فالمفروض والعسكرى يمثل كل ما ذكرته آنفا ، والرجل يمثل التجار الصغار ، أن يتقاضى ضريبة يضعها تحت أى اسم يشاء .. ضريبة ليست أقل من كوب الشاى مثلا ، وأن يعفى العسكرى هذا الرجل من الضريبة . ليس هذا فقط .. بل أن يخسر من جيبه قرشا أمر له دلالة خطيرة لا بد . أن هناك سببا لهذا الاستثناء ، فإذا اتضح أن لا سبب

هناك فمعنى هذا أننا فى مواجهة ظاهرة خارقة . عسكرى مرور .. ملك متوج على بقعة نائية مهجورة ، ويستطيع من هذا المكان أن يسيطر على غرائزه وبالذات على غريزة فرض الضرائب غير القابلة للسيطرة والتحكم ، ويكون ذا ضمير مستيقظ لماح .

هنا لا بد أن تلتفت كلية للعسكرى وتعيد النظر فيما دار بينك وبينه من حديث . الآن تستطيع التحدث بهدف ، ولكنك إذا تحدثت فستقطع أخطر محاورة مفروض أن تدور حالا بين العجوز والعسكرى ، لأننا لن نستطيع إدراك مضمون الحوار إدراكا حقيقيا إلا إذا وضحت لنا صورة العسكرى ، فلا بد لنا أن نؤجل الحوار إلى حين .. العسكرى شباب فى حدود الثلاثين فى حديثه وآرائه تحديدات من لم يتزوج بعد ، أو إن كان قد تزوج فلم يستطع الزواج أن يصيب شخصيته كما يصيب الجسد بالترهل وعدم الميل إلى التحديد . الزواج باعتباره عملية تنازل مستمرة ومساومة فى أحسن الأحوال يصيب الرجل بعادة الرغبة فى المسألة والبحث عن الحل الوسط ، فالجمل لا بد أن تكون لها نهايات مفتوحة تجعلها قابلة للتراجع التام فى أحيان ، أو الاتصال بجملة أخرى تغير تماما من المعنى المقصود . الزواج ضد نقطة النهاية وضد الحسم — ربما — خوفا من سوء وضع النهاية . ما علينا ! شخصيته محددة ، آراؤه فى الناس أيضا محددة ، وكذلك فى عمله وطبيعته ، وهذا شىء نادر هنا ، فالوظيفة أية وظيفة كالزواج تماما تعلم صاحبها فتح الجمل ، وكثرة استعمال حروف الوصل واللضم والجر والألفاظ التى تحتمل أكثر من معنى وتفسير ، لاستخدام معناها الآخر كسلم الحريق حالة وقوع الكوارث وتحمل المسئولية . له شارب تحس أنه عن عمد قد وضع شاربا لا للعياقة أو إظهار الرجولة ، والرجولة فى حاجة إلى إظهار ، وإنما لأنه — ما دام

الناس صنفين — فقد اختار أن يكون من الصنف ذى الشارب .. صعيدى أو عربى ، فلا تزال به بقايا قبلية فى لغته وفى ميله إلى الحديث عن كل ما هو عام ، فالانتماء يبعد عن الذات وكل ما يمت إلى الشخص بمفرده . ولا أستطيع أن أقول إنه شهم ذو نخوة وأريحية فلم يكن قد بدا منه ما ينبئ بأى من هذا ، ولكنك تتمنى بل ترجح أن يكون شهما ذا أريحية ولكنه أبدا ليس كاملا ، فصحيح أنه يعامل السائقين بمساواة تامة لا يبالغ فى رد تحياتهم المفرطة وكذلك لا يرد عليهم بتعاظم وتكبر ، ولكنه يكاد ينتفض واقفا إذا جاءت التحية من عربة ملاكى ، فعلى رأيه من يمتلك عربة أنه صاحب نفوذ .. موظف كبير أو صاحب مهنة غنى أو ابن لهذا أو لذاك ، وليس من العقل أو الحكمة أن يصطدم من كان مثله بأمثالهم .

قال العجوز بعد أن وضع كوب الشاى بأدب تحس منه أن الأدب — أو بالأصح حتى لا يختلط الأمر — التأدب كان ذات يوم حرفته ، ويذهب بك الخيال إلى أنه من الجائز أن يكون قد عمل سفرجيا فى قصر باشا أو على الأقل مساعد مرمطون .. قال : أنا لى رجاء عندك .

ولم يكن العسكرى قد أدرك بعد أنه يرجوه ، وربما كان لا يزال منصرفا إلى تأمل الشاى وتهيئة نفسه لارتشافه .. فاستطرد العجوز يقول : لو تتكرم وتسمح لنا بعربية نقل تأخذنا ..

وقال العسكرى وهو منصرف أيضا — وبمزاج — إلى أخذ الرشفة الأولى من الشاى ، ما أعذب الرشفة الأولى من أى شىء :

— تاخدك فين ؟

ربما خسن يريد أن يقضى مشوارا فى أقرب مدينة تلك التى لا بد تبعد عن

المكان بعشرات الكيلو مترات ، ولكن العجوز قال :

ـــ أصل أنا ما أحبش المواضيع لما تحصل كده ، يبقى أحسن تاخدها من قاصرها وتتكرم علينا بأى سواق توصيه .

قال العسكرى وملامحه القمحية ذات الندوب تنكمش انكماشات التأثر ، إن لم يكن بعض الغضب :

ـــ هو جالك تانى ؟

قال العجوز وهو لا يزال سادرا فى رجائه :

ـــ وقال لى ..

ورغم هذا قاطعه العسكرى :

ـــ وقال لك برضه ؟

قال العجوز :

ـــ وقال لى برضه ، فأنا رأيى أحسن طريقة زى ما قلت لسيادتك كده آخدها من قاصرها ، حاكم المسائل لما بتوصل على إيه ده كله كلمتين منك وأى سواق وكتر ألف خيرك .

قال العسكرى وقد بلغ الانكماش بملامحه درجة الانفراج ، إذ الغضب كان قد بدأ يتحول إلى كلام :

ـــ اسمع يا عم حسن ، أنا قلت لك طول مانا هنا ماحدش يقدر يقرب لك .

ـــ بس أنا المسائل لما بتوصل أقول لنفسى على إيه الأرض أرض الله ، ومافيش أوسع من أرض الله ، وربك بيقطع من هنا ويوصل هنا ، وكلمتين لسواق ..

بحزم هذه المرة قال العسكرى :

ـــ والله لما يكون هو الجن الأحمر ، مش يكفاك كلمتى ، أنا قلت طول مانا

هنا لا هوه ولا مليون واحد زيه يقدر يهوب ناحيتك ، بس ركك أشوفه مرة وانا أعرف شغلى معاه ، هو جالك إمتى ؟

— من شوية .

— جه منين ؟

— م الناحيا دى .

— وراح فين ؟

— م الناحيا دى .

— وازاى ما شفتوش ؟ ركك بس أشوفه ، أنا مش قايل لك لما يجيلك اندهلى .

— يا سيدى ربنا يخليك ويكتر خيرك ، بس أنا قصدى يعنى إن المسائل لما بتوصل مفيش داعى ، وكلمتين منك ..

وكان العسكرى قد انتهى إلى آخر نقطة من شرب الشاى ، فتناول العجوز الكوب ومسح قاعدته السميكة مرة أخرى ، وانحنى ومد يده ومسح الدائرة المبتلة التى صنعتها على المنضدة ، ومضى وهو يتمتم لا بد بدعوات وكلمات شكر .

لو رأيت هذا المشهد لدفعك حب الاستطلاع حتى إلى سؤال العسكرى عن معنى هذا كله ، ولخمنت حتى قبل أن يبدأ فى أن سببا ما لا بد يدعو العسكرى للتمسك بوجود عم حسن العجوز كل هذا التمسك .

ولو كنت تكتب قصة بطريقة التأليف كما يفعل بعض الناس لألفت للموقف امرأة ، مثلما كدنا نفعل فى البداية ، ولجعلناها زوجة صغيرة لعم حسن العجوز ، أو ابنة فائرة لعوبا .

لا بد سيدور بخلدك شيء كهذا .. فالعسكرى لا يذكر لك شيئا كثيرا . إنه يؤكد لك بلا حاجة للتأكيد أن الرجل عجوز وطيب ، وأن له فى هذه البقعة بضعة أيام ، وقد كان جالسا فى نفس مكانه وجاءت عربة نقل ووقفت كالعادة ، وبينما السائق يذكر له الرقم وإذا من الصندوق ترفع الهامة القصيرة لعم حسن ، وإذا به يتطلع إلى المكان ثم تقع عيناه على الشجرة فينحنى ناحية السائق فى الكابينة ويشكره ، ويطلب منه بأدبه المعهود أن ينزله هنا ، قائلا إنه قد اختار هذه البقعة لينصب فيها نصبته ، وبمساعدة الشيال ينزل عم حسن أشياءه الفقيرة القليلة ويستأذن من العسكرى ويقضى بقية اليوم فى إقامة « الغرزة » .

وتلك هى حياة عم حسن التى اختارها ، وكل إنسان منا يختار حياته بالطريقة التى تحلو له ، بعضنا يختار المهنة الناجحة ويقضى عمره يحارب زملاءه من أبنائها الناجحين ويكيد لهم ويكيدون له ، وبعضنا يختار مهنة البحث عن مهنة ويظل العمر ينتقل من عمل إلى عمل فاشل ، ولكل منا كما قلت مهنته التى يفضلها أو التى تتلاءم مع ذاته وطبيعته وصفاته . وعم حسن قد ترك هذا كله واختار لنفسه مهنة أن يخدم الناس حيث لا يتوقع الناس خدمة ، فهو لا بلد له ولا بيت ، موطنه الدائم يوجد حيث يوجد بيته .. وبيته يوجد حيث يوجد عمله ، وعمله يوجد حيث يرى أن حاجة الناس إليه أكثر وأشد .

وهو يصنع القهوة والشاى والمعسل .. ورأسماله بلا رأس وبلا مال ، وهو يوجد اليوم هنا فى بقعة مهجورة من طريق السويس — الإسماعيلية ، لا بد عندها تقاطع أو محطة أو شيء ما .. هنا حيث يصبح لكوب الشاى قيمة لا تقدر ، خاصة إذا قدم لسائق منهك استيقظ منذ الفجر ، وعليه قبل أن ينام أن يقضى الليلة القادمة بطولها سائقا .

( لغة الآى آى )

ويظل عم حسن فى المكان حتى يزهد هو فيه أو يزهد فيه المكان أو تصل المسائل على حد رأيه إلى حيث يصبح لا داعى للبقاء .. يشير عم حسن لأية عربة قادمة فى هذا الاتجاه أو ذاك فسكك الله كلها له ، وكل مكان فيها مثله مثل أى مكان ممكن أن يصبح بلده وموطنه ومسقط عمله . ويركب عم حسن هو ورأسماله ، وفى أى اتجاه يتصادف أن تكون العربة ذاهبة إليه يذهب ، وعند أية بقعة فى المسافة يراها عم حسن تصلح مكانا يحتاج فيه الناس والسائقون بشكل خاص للخدمة ولا يجدونها ولا يتوقعون وجودها ينحنى على السائق يطلب منه بأدبه المعهود إنزاله — وعادة ، بل لم يحدث أن تقاضى منه أى سائق أجرا — وينزل ، ويظل يعمل ، وقد يقضى فى البقعة أياما وقد يقضى فيها — كما حدث — سنتين ، إلى أن تصل المسائل إلى الحد المعهود فيشير عم حسن إلى أول عربة نقل قادمة ، وهكذا ..

ولا بد — خاصة إذا كنت مثقفا مقيدا بألف قيد وهمى أو من صنعك .. إلى عملك — تمنعك أشياء ليس أقلها الخوف الشديد أو بالأصح الجبن من أن تفكر — مجرد تفكير — فى تغيير محل عملك أو عملك نفسه أو حتى محل إقامتك ، لا بد أن تحسد عم حسن على حياته تلك فهى فى رأيك لا بد أرحب وأوسع حياة ، حياة ألغت المكان والزمان والبعد الرابع وكل الأبعاد ، البلد كله بملايين الكيلومترات التى تكون سككه وطرقه ومساحته ملكك .. ملكك حقا لا مجازا ، إذ ماذا تفعل بالملكية قدر حقك أن توجد فى المكان الذى تمتلكه وقتما تريد وأى زمن تشاء ؟ وهل يحتل صاحب العمارة مهما كبرت أكثر من المقعد الذى يجلس عليه أو الفراش ؟ وما متعة من يمتلك مئات الأفدنة أو بضع عمارات ؟ ولكنه صاحب مصر كلها ، من حقه أن يحل بأى مكان فيها فى أى

وقت يشاء ، ويستمتع ما شاءت له المتعة بإحساسه أنه صاحب المكان وأى مكان .

وجزء من دوافعنا للالتصاق بمنطقة بعينها من المدينة أو القرية ، بل بشارع ، بل ببيت بعينه من بيوتها ، هو أننا نعرف الساكنين معنا وحولنا ونأتنس بهم . وجزء من خوفنا أن نغادر ذلك البيت أو الحى ونقطن فى غيره ، أننا نخاف تجربة الغربة مع أناس لم نعرفهم بعد وحتما لهذا نتوجس منهم .

ــ إن ما يدفعنا للالتصاق بمكان محدد وناس محددين هو أننا نخاف الأمكنة الأخرى والناس الآخرين ، فنتقوقع على ما نعرفه ومن نعرفهم حتى لو قضينا الأعمار نمله ونملهم . عم حسن العجوز لا بد أنه لا يخاف الآخرين ، وما دام قد اعتبر مصر كلها بيته ومكان عمله فلا بد أنه اعتبر المصريين كلهم صعايدة وبحاروة وشراقوة وغرابوة أهله وأبناء حيه وحته ، وهكذا وبمنتهى الجرأة والألفة والبساطة ألقى نفسه فى وسطهم فى البحر الضخم الهائل الذى يكون ملايينهم .. ومن الواضح تماما أنه لم يغرق وأن الأيدى رفعته ولا زالت ترفعه بحنان ورفق لتضعه حيث يحدد أو لتسلمه إلى يد جديدة إذا أراد .. وكأنما أبرم الرجل اتفاقا مع المصريين جميعا أصحاب البلد أن يقدم لهم القهوة والشاى فى المكان الذى يفتقدون فيه القهوة والشاى أكثر .. وفى مقابل هذا عليهم هم المصريين أن يتكفلوا بأمر عيشه وسكنه وإقامته وتنقلاته كلما حلا له أن ينتقل .

وكما تؤثر الوظيفة فى الموظف ، وكما يصبح من خصائص سائق الأتوبيس صوته المرتفع ، إذ لا بد له أن يرفعه ليغطى على صوت الآلة الحديدية والآلة البشرية ليسمعه الركاب ، أو حتى ليبلغ شتائمه إلى الراكب الذى آثر أن يدخر رأيه الصريح فيه إلى اللحظة التى يضع فيها قدمه على الأرض ويتحرك الأتوبيس ..

كما تنمى الوظيفة ذلك الجزء من الإنسان الذى يتعامل به مع الآخرين .. وبالتالى تنمى لدى الآخرين ذلك الجزء الذى يتعاملون به معه ، فعم حسن يتعامل مع جزء نادر — أو بالدقة نادر العمل — فى الناس . ذلك الجزء المخصص للعمل من أجل الآخرين .. الجزء الإنسانى الضامر فى أناس كثيرين .. الذى ربما حولته الأجزاء الأنانية لدى البعض كما تحول الأماكن غير المستعملة إلى مخازن تختزن فيها أحصنة النهم الإضافية ومغذيات الطموح الفردى الصغير .

عم حسن يعامله الناس ، والسائقون الذين يبدون وكأن قلوبهم قد قدت من جرانيت أصم ، بأجزائهم الإنسانية ، وما أكبر هذه الأجزاء أحيانا بالذات فى قلوب هذا النوع المخيف من السائقين .. ولأنه يحيا ويتنفس ويأكل وينام بهذه الأجزاء وبما تهيئه له فقد اكتسب هو الآخر طابعا غريبا يميزه عن جميع الناس ، فأدبه الزائد ليس ذلك النوع الممتثل الذليل الذى تدرك فى الحال مدى ما فيه من ضعة واسترزاق .. إنه نوع عميق من الأدب لا ينبع من الانحناءات والكلمات الهامسة .. وإن كانت بعض أعراضه كلمات هامسة .. ولكنه يهمس لا ليريك ويظهر لك أنه يهمس ولكن لأنه يرى بإدراكه أنك ستستريح أكثر لو همس . نوع من مراعاة الشعور ، ولكن لأن مراعاة الشعور لدى معظمنا لا تحدث إلا لسبب وإلا لحاجة لك عند من تراعى شعوره ، فأعتقد أنه من الصعب أن نتصور مراعاة الشعور لمجرد مراعاة الشعور .. لمجرد أن إنسانا يحترم شعورك فعلا ويقدره — مهما كنت — ويهمه مراعاته ، بل حتى فى طريقة سؤاله للناس .. إنه يفعل هذا بأدب صحيح ، ولكنه أدب فيه ثقة بنفسه وكأن المسألة أمر مفروغ منه . فرق كبير بين أن تطلب من إنسان لا تعرفه شيئا وتحاول حينئذ ولأنك تفترض أنه ليس من حقك أن تطلب منه وهو الغريب عنك شيئا أو تسأله معروفا ، تحاول أن

ترفق ما أمكن من طلبك ولهجتك وتودع فيها كل ما يمكنك إيداعه من رقة السائلين والمقترضين ومن يطلبون بذلة ، فرق بين هذا وبين أن يطلب من إنسان تعتقد أنه فعلا أخوك ومن أقربائك ولك عليه مثلما له عليك أن تسأله ، ومن واجبه وليس تفضلا أو تنازلا أن يعطيك .

ولكن تلك تفاصيل لا معنى لها .. ومحاولة يائسة لشرح « كل » من الصعب شرحه . فعم حسن ليس مجموعة تصرفات كهذه ولكنه أولا روح كاملة ربما بعض مكوناتها تلك التفاصيل .. إنه روح غريبة تعيد إلى ذهنك آثار الظواهر الطبيعية وهى تعمل عملها عبر ملايين وملايين من السنين لتفتت الصخر الكبير إلى رمل دقيق أملس رائع التكوين .. لتقد من الصخر نهرا عذب الماء كنهر النيل ، لتصنع من الزلال وزلال الزلال حياة ، ومن الحياة كائنات ما أروعها حين تتأملها كالسمك دافقة بالحياة عامرة بالتفاصيل ، كالأسود جليلة مروعة يديخك مجرد تفكيرك أن الأسد العظيم منها كان ذات يوم قريب كائنًا لا يرى إلا بميكرسكوب ، كائنا كان هو الآخر ومنذ أيام قريبة أسدا عظيما كذلك الأسد .. وتأمل كيف استطاع آلاف الناس بمراكزهم وتصرفاتهم الإنسانية أن يخلقوا أو يدربوا ذلك المركز فى عقل عم حسن وشخصيته ليكبر وينمو ويزدحم ، ويحيل هو هذه المرة مراكز الأنانية وما يخص الذات الصغيرة إلى مخازن يودعها مشاريعه القادمة للناس .. لحب الناس ، لكى لا ينسى وهو فى قمة انشغاله وحوله السائقون مزدحمين كل يريد أن يحظى منه بأكبر جرعة من الحديث والشاى ، إن عسكرى المرور يتغدى وإنه انتهى من طعامه ، وإنه فى حاجة إلى كوب شاى .

لنتصوره بوجهه الأسمر وصلعته النامية الخفيفة ، بأذانه الكبيرة التى تؤكد

ملامحه ، بأنفه الكبير قليلا يؤكد رجولته ويؤكد فى نفس الوقت طيبتـه إذ لا شموخ فيه ، واتساع فتحتيه يريحك ، وعيونه ليست أبدا كعيون الملائكة ناعسة سارحة .. أهم شيء يجذبك إليها هو يقظتها ، وليس يقظتها إلى ما يدور فى عقل صاحبها وإنما يقظتها إليك أنت ، إلى ما تفكر فيه ، إلى أحوالك وكيف تبدو ، وهل معنى ابتسامتك الواسعة أن كل شيء بخير ، أم يا ترى تنبئ عن ضيقك بما تحسه من ضيق ؟

وإنها لسعادة أن تنظر إلى عم حسن وبالذات إلى جبهته العريضة البارزة التى إذا قستها بالمقاييس المتواضع عليها للجمال لبدت قبيحة ، إنها لسعادة أن تنظر إليها فتحس أن لم يدر خلفها شيء .. فكرة أو خاطر يضر بإنسان ، أن تدرك بوعى وعمق أن هذا الرجل الذى ينظر إليك بجماع نفسه لا يفكر أبدا فى إيذاء أحد ولا يمكن أبدا أن يفكر فى خداعك أو السخرية منك والضحك عليك ، إذ ما من فكرة شريرة عرفت أو يمكن أن تعرف طريقها إلى رأسه .. لا أحلام غنى باهظ راودته واستعد معها لأن يدوس الغير فى طريقه إليها ، ولا أمنية ألحت عليه أن يكون له ما لك أو بعض ما لك وأنه لا يحسدك أبدا على منصبك أو وسامتك أو زوجتك المخلصة .. ولم يفكر أبدا فى الحط من شأنك حتى بينه وبين نفسه لكى يثبت لها مثلما يحلو للبعض أن يفعل أنه أحسن منك . إنه لشيء رائع ومحير ومثير للخوف أن تدرك أن كل هذه الصغائر التى يقضى بعضنا تسعة أعشار أعمارهم يلوكونها فى عقولهم ويقيدون بها قدراتهم ، ويلوثون بها ضمائرهم وطبيعتهم الإنسانية التى تخلق نظيفة حساسة ، هذه الصغائر كلها لا محل لها فى عقل عم حسن العجوز . ترى أى مكان رحب يصبحه عقله ؟ أية حرية تتمتع بها خواطره ؟ أى أمان شامل كان يظللها ويظلله ؟ أجل الأمان الذى يقلب

الناس دنياهم ويحفرونها مخابئ ودهاليز ليحتموا بها من الأعداء المعروفة والمجهولة ، ومن الزمن والمرض والخيانة . وكلما بحثوا عن الأمان خافوا إذ يدركون أنهم مهما فعلوا فليس هناك دواء شاف أو ملجأ أكيد . وكلما خافوا على أنفسهم من الآخرين أخافوا الآخرين منهم حتى تنقلب العقول إلى مواقد مجنونة للقلق والرعب .. إنه يتصرف دون أن يحسبها ويفكر دون أن يحسبها ليعرف بماذا يتصرف ، فالحاجز الذى يضعه الكثيرون بين التفكير والتصرف حاجز سببه أنهم حين يتصرفون يخجلون مما يفكرون ، وحين يفكرون يخافون التصرف بمثل ما يفكرون . يالروعة عم حسن وتصرفه يمضى فى تسلسل وصفاء مع أفكاره ، وأفكاره من تلقائها وبلا جهد يضيعه أو يفقده تصنع تصرفاته . وليس فى وسط الدائرة الحلوة التى لا بد يحتاجها ليقهر هذا العبوس ، إلا الشربة من ماء القلة الباردة ترد الروح التى تتسرب من جسده مع حبات العرق المنهمر ، إلا كلمة طيبة يقولها لصديق الطريق وهو قائم ينفض التراب عن جلسته ويستعد لسفرته القادمة المجهولة : خلى بالك .. الدنيا ليل ونورك واطى ، لما تقابل عربية هدى ، وحياة بنتك الغالية لانت فاكر كلامى ومهدى .

وقد يعتقد البعض ، ولهم الحق ، أنى أنبذ الواقع وأتحدث عن إنسان خرافى غير موجود . ولكن الكارثة الكبرى أن عم حسن موجود ولا يزال إلى الآن حيا يسير وينتقل أنى وجد فى مصر طريقا ، ولكن المشكلة ، أجل المشكلة أن الدنيا كلها ليست عم حسن ، وأن المسائل لا بد أن تصل يوما إلى الدرجة التى يصبح معها من العبث البقاء .

* * *

ولنعد إلى الرجلين والمشهد ، ولنؤمن الآن وقد عرفنا الكثير أن ليس فى الأمر زوجة أو ابنة ولا سيدة بالمرة ، ليس لأن عم حسن لم يتزوج فالحقيقة أنه مرات تزوج ، ولكن زوجاته كن بعد فترة وبعد انقشاع الرغبة فى التغيير يضقن بحياته ويردن البيت والعمل الثابت الذى لا يبحث فيه عن الناس ، وإنما على الناس فيه أن يبحثوا عنه . من هنا كان يدب الخلاف وينطلق عم حسن إلى طرقاته ومحطاته ودنيا الله الواسعة ، وينطلقن هن باحثات عن الأمن والثبات الذى يصنع الأولاد .. لنعتقد إذن أن ما بين الرجلين إن هو إلا صلة أخرى من صلات عم حسن بالناس ، تلك التى تنشأ فى لحظات وتظل تنمو ولا تكف عن النمو كلما مر عليها الوقت ، عكس ما يحدث فى العادة ، فما أرحب وأوسع ما تنشأ العلاقات وما أسرع ما تبدأ تضيق ، والمشغوليات بالنفس كثيرة ، والعلاقات التى لا تنفع تضر ، والأعم الغالب أن تنتهى العلاقات إلى ذلك الخيط الرفيع الذى يفصل بين الجهل والمعرفة ، فتعرف الشخص وكأنك لا تعرفه ، وصلتك به لا تتعدى أكثر من يد عالية ترفعها بالسلام من بعيد ، أو إيماءة من رأس أو — أضعف الإيمان — ابتسامة وكأنما لتثبت بها لنفسك أنك تنتمى مجرد انتماء إلى هذا الجنس .

والعسكرى يروى كيف بدأت الحادثة ، فمنذ بضعة أيام ذهب إلى عشة عم حسن لأول مرة عابسا شديد العبوس . ولا بد لنا لكى نكمل القصة أن نعرف أشياء كثيرة عن العسكرى بشكل عاجل ، فهو قروى حياته الحقة بدأت بالعسكرية ودخول الجيش .. وكان الجيش مدرسته ، هناك صاحب شبان المدينة وعرف المدينة من خلالهم وخرج وقد آلى أن يعرفها بنفسه ، والمدينة صعبة على من يريد معرفتها بقيم فلاح ودردحة ذكى ، ولكنه رغم هذا استطاع أن يجد لنفسه مكانا غير رسمى فيها ، وهو وإن كان يقضى معظم أيامه مقطوعا فى

كشك إلا أنه فى إجازته يعوض كل ما فاته ، وحتى بنات الليل يستطيع مصاحبتهن .. وله فى كل مدينة يحل قريبا منها جلسنات وقعدات وأركان ، ودائما يعثر على عشيقات .

غير أنه من يوم أن حل عم حسن فقد الحماس تماما للمدينة ولكل ما ينتظره فيها ، فساعة واحدة كان يقضيها مع الرجل كانت تمتعه بما لا يستطيع الوصول إليه إلا فى أيام ، فعم حسن عاش وشاف ، وعاش وشاف بطريقة لم يعش أو يرىبها أحد . فغيره يجلس مع الرجل بل أحيانا يجاوره لشهور وسنين دون أن يعرف عنه إلا أقل القليل ، عم حسن كان يغوص من فوره فى النفس محبة — أو بناء على طلب صاحبها — وفى دقائق يعرف ما لا يعرفه غيره فى ساعات ، فوجهه كان يملك اللمسة السحرية المتناهية البساطة التى تفتح النفس ، والنفوس دائما تواقة لأن تفتح ، وأغنى ما فى الأرض ليس كنوزها وما تحتويه قشرتها .. أغلاها ما فى نفوس الرجال من ثروات . إن فى داخل كل منا كنزا تجمع وتراكم فيه عشرات السنين وآلاف الخبرات . كل نفس كالمحارة مهما انغلقت فهى لا تكف عن إحالة التجربة بالإضافة والإعادة والتعديل إلى لؤلؤة ، إلى ماسة ثمينة من ماسات الخبرة الإنسانية المركزة والمكثفة والمصنوعة داخل تلافيف الحياة . وقد استطاعت نفس عم حسن الخالية من المهبطات والمعطلات ومخصصات الأنا اللزجة أن تمتلئ وتستوعب عددا لا يعد ولا يحصى من كنوز النفوس الأخرى . وفوق ما يمكنها تقديمه وعرضه من نماذج استطاعت نفس عم حسن أن تقوم بدورها كصانعة لآلئ وماسات ، وأن تحيل ما احتوته نفسه من تجاربه ومن الآلاف المؤلفة من تجارب الآخرين إلى ما يشبه برج مجوهرات الإمبراطورية البشرية .. إلى متحف يدير مجرد التجوال فيه الرءوس ، ولا شك أن المتع كثيرة

وكلها حلوة ، والمرأة جميلة ممتعة ، وقعدة العسكرى فى البندر مع إخوانه يدور عليهم الشيء أو يدور بهم متعة .. ولكن العسكرى فى حياته كلها لم يجد متعة أعظم من أن يجلس الساعات إلى عم حسن ، ويسمعه بمفرده أو معه الآخرون وهو يحدثهم ، ومن ذات نفسه يفرجهم على عوالم غريبة رائعة وليالى وكأنها مسحورة ترى من فنجان ، وأيام وأحداث وكأنها اغترفت من أكداس الروايات ، مع أنه فى كل ما كان يتحدث به لم يكن هناك أثر للخيال ، إذ لم يكن هناك أى داع للخيال ، فما رآه رأى العين أغرب مما يراه الآخرون رأى الخيال .. لا شك أن المتع كثيرة ولكن يبدو أن أمتعها جميعا وأحلاها هى متعة أن تعرف .. متعة أن تعلم ما تجهله أو تزداد علما بما تعرفه ، وكل ما يحدث عنه عم حسن دائما جديد غير مطروق ، أناس وكأنهم ليسوا من جنس الناس ، وإنما من نوع آخر لا يتبدى إلا لعم حسن .. أو كأنهم الناس ولكن أشياء منهم مغلقة تفتح بكلمة سر لا يعرفها إلا الرجل العجوز .

وجده العسكرى فى ذلك اليوم عابسا شديد العبوس .. حتى لقد استغرب أن يمتلك من كان مثله القدرة أن يعبس بهذه الشدة .. وحين سأله عما به لم يشأ أن يتحدث وكأنه لا يرى فائدة فى الحديث .

ولكن تحت الإلحاح قال إنه حدث ما كان وسيظل دائما أبدا يخشاه ، فقد جاء الرجل وطلب منه مغادرة المكان .

أى رجل وبأى حق يطلب ما يطلبه ؟

قال أنه جاء هذه المرة بحجة أن الأرض التى أقام فوقها عشته أرضه ، وأنه يعطيه مهلة إلى الغد لينتقل منها .

وطمأن العسكرى خاطره قائلا أنه لا بد نصاب ، أو سلطه أحد أصحاب

العشش الأخرى .

وهنا لا بد تدرك إن ثمة عششا أخرى وغرزا قد أقيمت بعد مجيء عم حسن ، فهكذا دائما شأنه ، ما أن يحل بالمكان المهجور ويبدأ فى تقديم مشروباته إلى الغادين والرائحين على الطريق .. أصحاب الطريق كما كان يسميهم عم حسن الذين قد تتصور أنهم قلة فى حين أنك لا يمكن أن تتبين كثرتهم إلا إذا أقمت لهم مكانا للشراب والراحة .. مكانا يصبح ككشك المرور الذى لا تلمح قبله أثرا لعربات ولا تلمح بعده ، وإنما عنده فقط وعند العشة تظهر العربات ويظهر الناس ويتكشف عنهم الفراغ الذى كان يخفيهم ، وعنده يلتقطون أنفاسهم برهة استعدادا لاختفائهم القادم فى الفراغ .. أصحاب الطريق كثير ، لا بد لهم أسبابهم الخاصة لسلوك الطريق ، ولكنك تعجب حين يخرج لك عم حسن يعرض كنوزه متحدثا عنهم قائلا إن فيهم صاحب الحاجة والهدف لا شك ، ولكن الغالبية سيتعبك حتما أن تحاول معرفة أهدافهم ولماذا يسيرون ، إن معظم الناس أجناس قانعة ميالة إلى البيوت وحياة البيوت وعالم البيوت ، ولكن الدنيا فيها آخرون .. فيها القائلون لأنفسهم وللعالم بلاد الله لخلق الله ، ومن بلد إلى بلد يرحلون ، وعلى الطريق يشربون ويأكلون وأحيانا على نفس الطريق يموتون .. أصحاب الطريق وسكانه دائما فرادى ، ودائما على الطوى ، ونادرا ما يتكلمون ، وليسوا أبدا مجذوبين أو مجانين ، وإن كان سلوكهم هذا قطعا سلوك مجانين .. الشيء الدائم أن وراء السير الطويل .. مسيرة العمر قصة انتهت حين وضع كل منهم قدمه على أول الطريق ، وقد يكون للطريق أول ولكن ليس له آخر ، وكأنما بحثهم الدائب عن آخر الطريق والعمر يمضى وأعمار كثيرة تمضى قبل أن يصل أى منهم — السالكين سلوك المجانين أو أى منا نحن السالكين مسالك

العقلاء ـــ إلى آخر الطريق . دائما نلتقى عقلاء ومجانين ، وراجلين وراكبين ، وأفندية وسواقين ، وهاربين وباحثين ، ومخبرين ومجرمين ، ومطاردين ومطرودين ، عند عم حسن عند تقاطع الطريق ، ونأنس باللقاء ونتعارف ونتحارب ونتذاكر ويسمى بعضنا البعض : رفاق الطريق .

وهكذا يحدث دائما ألا تبقى عشة عم حسن الذى يكشف بها التقاطع المهجور وحيدة لفترة أطول ، إذ لا تلبث عشة أخرى أن تقام وأن صاحبها ليس فى وحدانية عم حسن وإنسانيته وطيبته بل حتى نظافته .. إلا أنه لا يعدم زبائن آخرين ، وجعلنا لكل شيء سببا ، ولكل طالب رزقا ، ولكل عشة مهما كثر عدد العشش زبائن من رفاق الطريق .

ودائما ما تبدأ الغيرة من عم حسن ورواده الأكثر تأكل القلوب ، وعلى أقل سبب تحدث المشاحنات ، وفى البقعة المهجورة والمقطوعة الصلة بكل أسباب الحياة والأحياء سرعان ما تبدأ فيها أول البوادر وكما تستدل على الأسد من رائحة بوله المنكر تبدأ رائحة نظام الإنسان الفاسد تفوح ، ومن بعيد وسط سكون العصارى المطبق تسمع صوتا غير غريب عليك تتلاحق عواءاته من بعيد .. تسمع الصوت وتشم الرائحة ، الخناقة ، تحسبها كلابا على جثة ، ولكن الرائحة والخناقة أكثر بشاعة .. لا بد أنهم بشر على لقمة !

فإذا سمعت طرفا واحدا هو الماضى فى زعيقه وعوائه ، بينما الطرف الآخر صامت صمتا تاما وكأنه ليس المقصود ، فاعلم أن الخناقة مع عم حسن ، وأن الآخر يتشاجر معه رغم أنه جاء إلى التقاطع بعده .. ولولا عم حسن ما جرؤ على التفكير أو البقاء إلا أنه محموم ينفجر بغضبه .

ولكن هؤلاء لم يكونوا يسببون للرجل العجوز الطيب أى إزعاج ، بالعكس

كان دائما يقابل عويلهم بالابتسام .. ابتسام الفرحة ، إذ معناه أنه عمرت الحتة وليس ما يبهج عم حسن أكثر من أن يدرك وهو الجواب الأرض القفر والساحات المهجورة أن قطعة مهما بلغ صغرها من الدنيا ، ومن مصر أم الدنيا ، قد عمرت .

* * *

ولكن أن يعبس عم حسن ، وأن يبدو وجهه شديد العبوس ، وأن يظل هكذا حتى بعد محاولات العسكرى المستمرة لتطييب خاطره معناه أن فى المسألة شيئا آخر غير عادى .

واعتقد العسكرى أن عم حسن رجل طيب ومسالم ومن عادة هؤلاء أن يزعجهم التهديد ، وهكذا أخذ العسكرى على عاتقه ألا يتكرر المشهد وأن يظل وراء من هدده حتى يجبره على المضى إليه وطلب غفرانه . وبدأ يعيد السؤال عن الرجل ويطلب من عم حسن وصفه وتذكر من أين جاء وإلى أين ذهب . ولم تعجبه الإجابات فقد جاءت كلها غامضة محيرة وكأنما عن عمد ، أو من شدة الخوف — يحاول عم حسن تضليله ، وبهذا واجه عم حسن وكان أن ابتسم الرجل وكأنى بقلبه ابتسم ، فهو لم يكن يحاول أن يخفى عنه شيئا وأنه لا يفعل أكثر من أن ينقل إليه كل ما يعرف ، فهو لم يع بالضبط من أين جاء الرجل فقد أفاق فوجده أمامه ، ولا إلى أين يذهب فما كاد دمه يتغير لكلامه حتى كان فى ثورة الغضب قد اختفى ، وهو لا يذكر ماذا كان يرتدى فقد أضاع الغضب للحظة الرؤية ذاكرته ، غير أن ما أدهش العسكرى ومنعه عن متابعة بقية الحديث وعن إلقاء أى سؤال أن عم حسن فى كلامه عن الرجل كان وكأنما يتكلم من الذاكرة ، وكأن ما فى الذاكرة أقرب إليه مما منذ دقائق حدث ..

كان وكأنما يتحدث عن شخص يعرفه تمام المعرفة ، عن شخص لا يمكن أن تكون تلك هى المرة الأولى لرؤيته .. وحتى حين واجهه بهذا سكت ولم يجب ، وآخر كلمة قالها العسكرى قبيل أن يغادره أن طلب منه إذا جاء الرجل أن يشير له ويناديه ، وليدعه حينئذ يتكفل به .

وهز عم حسن رأسه ، وكان وجهه لا يزال محتقن الملامح فى اكتئاب .

* * *

وكاد العسكرى يغضب حين علم — من عم حسن نفسه — أن الرجل جاء وأنه هذه المرة أنذره ، ومضى قبل أن يستطيع أن يشير له أو يناديه ، كيف يمضى قبل أن يستطيع ؟ أهو كائن مسحور ؟

إنه هكذا — مضى عم حسن يخبره — عمره ما رأيته قادما ولا عرفت كيف يغادرنى .

عمرك ! أفى المسألة أعمار ؟

بالطبع — قالها عم حسن ببساطة .. فليست هذه أول مرة إنما دائما وراءه أنى يذهب ليسكن ، حتى يبدأ الآخرون يفدون ويقيمون العشش . ومن لحظتها يبدأ يأتى ولا يتركه حتى يذهب .

وللعسكرى ألف حق حين أحس أن عم حسن يبالغ ليس إلا ، وأنه من امتداد حياته الطويلة بعيدا عن المشاكل يجعل من الرجل جنيا أحمر . ووصاه وألح عليه إن جاء فقط أن يناديه .. ما عليه إلا أن يشير له ويناديه .

ولم يأت الرجل فى اليوم التالى — هكذا أكد عم حسن — لا ولا اليوم الذى يليه إلى العاشر ، حتى كاد جاز اللمبة « الشيخ على » يفرغ وسهرته التى نادرا ما تمتد أكثر ما تنتهى ، ويخمن مَن مِن زبائنه قرر قضاء الليلة عنده ومن سيرحل ،

هكذا فى ظلمة الليل ودون خوف من مجهوله وظلامه وكأنه فى بيته صاحب الطريق إلى العاشرة لم يكن قد جاء ..

وفى اليوم الثالث كان كوب الشاى الذى قدمه للعسكرى عقب الغداء ، وكان رجاؤه أول مرة يسمع فيها هذا الرجاء أن يساعده على الرحيل ..

وحين كان عم حسن يأخذ الكوب الفارغ ويمضى ويتمتم لم يكن ما يتمتم به كلمات شكر كما اعتقد العسكرى ، كانت كلمات ضيق وتبرم بالموقف الذى أصبح فيه . فها هو العسكرى يقف بجواره مصمما على بقائه وعلى أن باستطاعته الدفاع عنه ، فى حين أنه أعرف الناس أن أحدا لم يستطع — مع هذا الرجل — أن يساعده وأنه جابهه ويجابهه دائما وحيدا .. ولا فائدة من إطالة النضال .

وبعد دقائق كان ينادى بأعلى صوته يا شاويش ..

وفى بضع قفزات كان العسكرى قد ترك المكتب والدفتر ، والقيد والعربة النقل الدائر موتورها فى إزعاج ، وأصبح أمام عم حسن ، يسأل : هو فين ؟

وبيأس تام أجابه عم حسن أنه ذهب .

كيف ومتى وهل من المعقول أن يكون قد اختفى تماما ولم يمر بين ندائه وبين مجيئه سوى زمن كلمح البصر ؟

— مش قلتلك ؟ أهى دى عوايده .

ولأول مرة ، وبنظرة مختلفة تماما حدق العسكرى فى عم حسن ، فلم يكن هناك إلا تفسير واحد أن هذا الرجل العظيم مجنون لا بد يتصور أشياء لا تحدث .

وبنفس النظرة مثبتة على وجهه ، وبالذات على عينيه الواسعتين العسليتين :

— انت متأكد إن فيه راجل بالشكل ده ؟

وعلى الفور فهم عم حسن وابتسم فى رثاء .

وانقضت الليلة ، وفى الصباح وإلى الساعة الثامنة لم يكن قد جاء عم حسن له بشاى الصبح أو بدا له أثر . ودب القلق فى قلب العسكرى مخافة أن يكون قد ذهب ، لولا أنه من مكانه كان يلمح العشة وجلبابه المنشور فوقها منذ الأمس ، ولم يكن باستطاعته التحرك فبجواره كان ضابط ينتظر وعليه أولا أن يجد له عربة ذاهبة فى اتجاه العاصمة . وهناك قرب العاشرة جاءت العربة ، وحتى قبل أن تتحرك بعيدا كان هو قد وصل إلى جوار العشة ، وقبل أن يستدير إلى الباب كان ينادى عم حسن ، وخيل إليه أنه يسمع أنينا .. وفى الداخل كان عم حسن راقدا وحول عينيه كدمة زرقاء كبيرة وصدغه وارم وواضح من هيئته أن اعتداء قاسيا قد وقع عليه . وردا على أسئلته الكثيرة واستفساراته حدق فيه عم حسن بعينه غير الوارمة ، وحدق فيه مليا قبل أن يقول :

— صدقت بقى إنه بييجى ؟

وفتح العسكرى فمه ولكنه عدل عن النطق ، ودون أن يغير لهجته استطرد عم حسن :

— مش تعمل فى معروف بقى وتكلم لى سواق ؟

قضى العسكرى إلى الظهر ودمه يغلى تارة وجسده يرتعش تارة أخرى . إنه بطبيعته لا يتحمل أن يرى أحدا ضحية ظلم مهما صغر ، فما بالك والضحية عم حسن ، أحب وأقرب من أنست إليه نفسه فى الحياة ، لقد قضاها كالقط الضال بريا يكاد يصل حد التوحش من الصعب عليه أن يألف ومن الصعب أن يأتلف حتى مع أخيه الأكبر الوحيد ، بل وحتى والمرأة بين ذراعيه وقد ذابت كل الفواصل ، عمره ما أحس أن ألفة حقيقية قامت بينه وبينها حتى لو كانت « نظلة » زوجته ، والأخرى التى جرى عليها طويلا واشتاق لها كثيرا وأحبها

وكانت بالصدفة اسمها « نظلة » أيضا ، الإنسان الوحيد الذى اخترق حجبه وهد جدرانه واقترب أكثر ما يمكن من قلبه وروحه ، وقرب قلبه وروحه إلى الدنيا والناس .. كان عم حسن .

عم حسن الذى فى أيام ارتبطت به نفسه إلى الدرجة التى لو أصر فيها على الرحيل ، لوجد نفسه دون أن يستطيع لها منعا يرحل معه .. الراقد الآن يتألم متورما ومضروبا من ذلك الرجل مهما كان ، وليكن أنسيا أو جنيا ، وليكن إبليس بنفسه وبكل جبروته .

كان العسكرى ولنسمه صميدة يعمل ثمانى ساعات ويستريح مثلها ، ويبادله العمل والراحة زميله .. زميل لا علاقة له بكل ما ذكرنا ، ما لاحظه ولا كان على استعداد للاهتمام به فهو فى السن أصغر ، وتلك أول مرة يتغرب فيها عن زوجته وابنه الحديث الولادة ، وهو دائما بالخواطر معهما لم يحس للحظة واحدة بما على قيد خطوات منه يحدث .

وقضى صميدة الأربع والعشرين ساعة بجوار صاحبه العجوز الذى رقد منها نصفها ، وعاد إلى طبيعته من نصفها الآخر ، وجلس وأكل وتحدث وصميدة صامت يجتر الغيظ ويستعيد بغضب ما يفعله بالرجل حين يجىء . ولكن أناسا كثيرين جاءوا وذهبوا دون أن يبدو للرجل أثر ، حتى أغمض مرة عينيه ورغم أن إغفاءته لم تطل أكثر من لحظات إلا أنه كان قد حلم فيها أن الرجل جاء . والعجيب أنه لم يكن كما تصور أبدا شيطانى الملامح يقدح الشر من عينيه . كان يبدو كالنوع « السهتان » من الرجال ، النحيف القصير ، وكان وجهه « سادة » تكاد لولا وجوده أن تعتقد أنه بلا ملامح ، وربما وجهه الخالى من الانفعال ذلك هو ما جعل صميدة يحس بالضيق الشديد منه وبالرغبة الملحة فى

قتله .. وهو صعيدى وعربى يعرف معنى القتل ويفهمه ، رغبة بلغ من شدتها وإلحاحها أنها أيقظته ، وحين صحا وجد عم حسن يحدق فيه بعين مفتوحة ونصف الأخرى الذى أصبح قادرا على فتحه ، وظل يحدق فيه لبرهة ثم قال : شفته ؟

وكاد يقول : شفته ، لولا أن عقله ارتبك وتساءل : كيف عرف عم حسن أنه كان يحلم ، وأن الرجل جاءه فى الحلم ؟

وسأله :

— ايش عرفك إنى شفته ؟

فقال عم حسن :

— ما هو كان هنا ولسه ماشى .

فقال صميدة :

— انت راخر حلمت به .

فاستنكر عم حسن :

— حلمت إيه ؟ أنا صاحى . وجه وافتكرتك شفتـه واستغـربت إنك ماقلتلوش حاجة .

وأحس صميدة بالخوف ، من المرات النادرة القليلة التى أحس فيها بالخوف إلى درجة كاد يخبر عم حسن أنه يوافق أخيرا على رغبته ، وأنه سيكلم له أول سائق يمر .

ولكن العناد ، ذلك الشىء المركب فينا يفسد علينا لحظات الاستسلام للواقع ، ثار وأبى وفى ومضة كان صميدة قد قرر إما هو أو ذلك الرجل .

وانتقل صميدة إلى عشة عم حسن يقضى فيها ساعات راحته ، والعشة نفسها

نقلها بحيث أصبحت تواجه الكشك تماما ، ولو استطاع لجعلها ملاصقة له .

وأصبح على عم حسن ألا ينتقل من مكانه إلا إذا عرف صميدة وتابعه إن لم يكن بنفسه فبعينيه ، وأصبح على صميدة أن يظل مفتح الأعين لا يغمض له جفن . إذا نام كان على عم حسن أن يظل مستيقظا قابعا بجوار زميله ، ولا ينام عم حسن وإلا وحماية صميدة تحوطه . ومع هذا ما يكاد الانتباه يغفل حتى يرفع عم حسن يده مستجيرا ، ويعرف صميدة أن الرجل جاء ومضى كما تأتى ريح وتمضى ، وأنه لا بد همس لعم حسن مثلما يهمس كل مرة بتهديده ، وبأن صبره قد نفد وأنه لا محالة قاتله .. والعناد ذلك الشيء المستبد الخارق يزداد نموا كالمارد العملاق فى جوف صميدة حتى ليصبح هو الذى يسيره ويخضعه ، وكلما ازداد استبدادا وازداد التهديد حدة أصبح على حركات عم حسن وسكناته أن تخضع أكثر وأكثر حتى ليكاد يشير لصميدة لينبهه أنه يريد فتح الفم أو التنفس .

وكان طبيعيا أن تخلو عشة عم حسن من رفاق الطريق ، ليس فقط لكل ما تقدم وإنما لأن صميدة قد أصبح يتوجس لدى قدوم أيهم . وبعينيه النافذتين يتفحص ملامح وجهه ليعرف قربها أو بعدها عن الملامح كما رآها وكما أصبح يعتقد أنها قريبة الشبه جدا من ملامح أى قادم يراه ، أو على الأقل باستطاعة أيهم أن يحيل ملامحه إذا أراد لتصبح « سادة » كريهة كملامح ذلك الرجل الكريه .

وفى صباح جميل ، كل ما فيه جميل إلا ما هما فيه ؟ مال عم حسن على صميدة وقال :

— ح نقعد كتير على كده ؟

— لغاية ما يبان ونخلص عليه .

— بعد يوم .. اتنين .. سنة .. سنتين ؟

— حتى ولو بعد عشر سنين .

— طيب معاك ، ساعتها صحيح ح نخلص عليه إنما احنا ح نكون رخرين خلصنا ، تعرف مين ساعتها ح يبقى انتصر ؟ العند .. احنا ح نكون متنا من زمان واللى عايش فينا العند وزى ما خلص عليه .. خلص علينا .. سيبنى أمشى .

— وتروح فين ؟

— دنيا الله واسعة يا أخى .. وإذا كان فى الحتة دى عدو فالطريق مليان أصحاب ورفاق .. الدنيا حلوة يا بنى وحرام تعادى فيها حتى اللى يعاديك .. عايز تغلبه سيبه ينفلق ويعاديك ، وأوعى تعاديه انت لتخسر نفسك .

* * *

وذات يوم وصميدة نائم ، كان عم حسن يلقى بنفسه مرة أخرى إلى أيدى الناس ، والسائق يساعده على جمع حوائجه .

وحين استيقظ صميدة ولم يجد عم حسن أو عشته أصابه ذهول أوقف تفكيره كأنما أحس أنه فجأة فقد كل ماله على ظهر الدنيا . وحين أفاق أحس لومضة بالارتياح ، فقد شعر أن العناد ينسحب من جسده ومعه تنسحب ملامح الرجل الكريه التى لم تغادر خياله لحظة ، تنسحب معه فتهزمه . لومضة أحس أن الحياة قد بدأ يعود لها طعمها الحلو ، كان عم حسن قد ذهب حقيقة وذهب معه سحره ولكن المكان عند التقاطع قد عمر ودبت فيه الأرجل وحفل بالعشش التى كانت إحداها قد بدأت تتحول إلى بناء ذى سقف وأبواب . لومضة عابرة أحس بكل هذا غير أنه حين أفاق تماما من ذهوله حاول أن يجرى وأن يسأل ومن السائقين والعابرين يستقصى ، لا ليعرف مكانه البعيد وإنما على أمل أن يعرف مكانه ليترك

كشكه ويذهب خلفه . وإلى الآن لم يزل صميدة مؤمنا وواثقا أن عم حسن لا بد حي يرزق ناصبا عشته عند تقاطع ما من الطريق ، ولا تزال كلما مرت به عربة نقل بعد أن يأخذ أرقامها ويرد تحية سائقها يسأله إن كان قد رأى أو التقى بعم حسن ، وبعضهم يقول إنه من سنة رآه وآخر من شهور ، وإجابات كثيرة يظفر بها ، مرة يجده فى دمنهور وأخرى فى طريق البدرشين .. آه .. لو فقط يعثر له على مكان أكيد ..

يناير ١٩٦٥

( تمت بحمد الله )

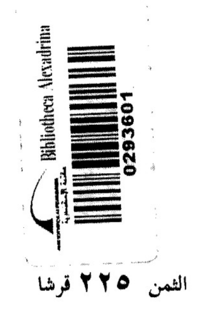
**(جـ) روايات :**

٢٠ — الحرام .
٢١ — العيب .
٢٢ — رجال وثيران .
٢٣ — العسكرى الأسود .
٢٤ — البيضاء .
٢٥ — بصراحة غير مطلقة .
٢٦ — اكتشاف قارة .
٢٧ — الآرادة .
٢٨ — مفكرة د . يوسف إدريس ( جزء أول )
٢٩ — مفكرة د . يوسف إدريس ( جزء ثان )
٣٠ — جبرتى الستينات .

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع : ٢٨٩٤
الترقيم الدولى : ٦ ــ ٤٨٩ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة






الثمن ٢٢٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه